مكاسبنا من وراء الحل الإسلامى

لماذا ننادى بضرورة العودة إلى الإسلام ؟ وندعو إلى اتخاذ « الحل الإسلامى » أساساً لعلاج مشكلاتنا ؟ ومصدراً لتنظيم حياتنا ، ومناراً لهداية أُمتنا ؟

إن بعض السذج من الناس يتصورون أن الحل الإسلامى لا ثمرة له ولا كسب من ورائه إلا فى الآخرة ، وأننا نريد الإسلام لننجو فقط من عذاب النار ، ونفوز بدخول الجنة .

ولا شك أن هذا مطلوب ، والفلاح فى الآخرة أعظم ربح يجب أن يحرص عليه الإنسان . فما ينبغى لعاقل أن يضيع باقياً دائماً بزائل فان . وما يجوز لذى لُبّ أن يحرص على السعادة فى عمره القصير المحدود وينسى الخلود الأبدى بعد هذه الحياة . وقد قال أحد الصالحين : لو كانت الدنيا ذهباً يفنى . والآخرة خزفاً يبقى ، لوجب على العاقل أن يختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى . فكيف والدنيا هى الخزف ، والآخرة هى الذهب ؟! بل الحقيقة أن النسبة بين الدنيا والآخرة أكبر من النسبة بين الخزف والذهب بكثير .. ولكن الأمثال تُضرب للتقريب .

ومع هذا اقتضت حكمة الله أن ينوط بهذا الدين الذى شرعه لعباده - خير هذه الدنيا وأمنها أيضاً ، وسعادة الفرد والجماعة فيها ، وضمنَ لمن آمن به وتبعه حياة طيبة ، وعصمه من الضلال والشقاء : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾ (١) ..

ونحن حين ننادى بالحل الإسلامى اليوم نؤمن بأن فيه الخير كل الخير ، والفلاح كل الفلاح لمجتمعاتنا ، فى هذه الدنيا التى نعيش فيها .

---

(١) طه : ١٢٣

نحن نؤمن بالحل الإسلامى وندعو إليه ، لأنه - بجوار ما يكفله من سعادة الأبد - يحقق لنا فى حياتنا الحاضرة من المزايا والمكاسب والثمرات المادية والمعنوية الفردية والاجتماعية ما لا يحققه حل آخر ، يُتسَوّل من الشرق أو الغرب .

تُرى ماذا تكون هذه المزايا أو هذه المكاسب ، أو هذه الثمرات ؟ هذا ما نفصِّل الإجابة عنه فى السطور التالية ..

١ - تحقيق إيماننا ووجودنا الإسلامى

فى الحقيقة أن الحل الإسلامى هو الحل الفذ الذى نحقق به إيماننا ، ونثبت به وجودنا ، ونبرز فيه حقيقتنا ، فهو الحل الحتمى الذى لا نملك غيره ولا خيار لنا فى قبوله أو رفضه ، لأننا رضينا باللّه رباً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبمحمد رسولاً .

إن طبيعة الإيمان باللّه تحتم على المؤمن الاحتكام إلى شرع اللّه تعالى مع الرضا به ، والتسليم له واعتقاد أنه العدل الذى لا جَوْر فيه ، والخير الذى لا شرّ معه ، والعلاج الذى لا شفاء في غيره ، وكل شك فى عدالة ما شرّع اللّه وفضّله على كل ما شرّع البشر وابتدعوا ، معناه الطعن فى علم اللّه تعالى وحكمته ، وخبرته بشئون خلقه ، وبرّه بهم ، وإحسانه إليهم ، ومَن فعل ذلك فقد ظن باللّه ظن السوء ، وظن الجاهلية ، فإنه تعالى بكل شىء عليم وهو بعباده خبير بصير ، وهو بهم رؤوف رحيم ، وهو يريد بهم الخير واليُسر ، ولا يريد لهم عنتاً ولا عُسراً . وكل مسلم يتلو هذه الآيات من كتاب ربه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ من قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ، وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ (١) .. ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلاَ يُرِيدَ بِكُمُ العُسْرَ ﴾ (٢) ،

---

(١) النساء : ٢٦ - ٢٨ (٢) البقرة : ١٨٥

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .. ﴿ واللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ من الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .. ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .. ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٤) ..

ومن ثَمَّ كان مقتضى الإيمان هو الإذعان لشرع الله تعالى ، والانقياد لحكمه وحكم رسوله مع الرضا والقبول والتسليم ، وفى ذلك يقول القرآن فى جلاء لا خفاء فيه ، ووضوح لا لَبْس معه : ﴿ وَمَا كَانَ لمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ منْ أَمْرِهِمْ ، وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً ﴾ (٥) .. ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمنينَ إِذَا دُعُواْ إِلَى اللَّه وَرَسُوله ليَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٦) .

ومَن لم يرض بحكم الله ورسوله فليس له إلا أن يرضى بحكم الطاغوت أياً كان اسم ذلك الطاغوت وعنوانه ومصدره ، إذ هما طريقان لا ثالث لهما : طريق الله وطريق الطاغوت . يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ من قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ (٧) .. إلى أن يقول : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ (٨) ..

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) البقرة : ٢٢٠ (٣) النساء : ١٧٦
(٤) الملك : ١٤ (٥) الأحزاب : ٣٦ (٦) النور : ٥١
(٧) النساء : ٦٠ - ٦١ (٨) النساء : ٦٥

ولا يستطيع أحد - بالغاً ما بلغ من مركز - أن يزعم أن جماهير هذه الأمة قد كفرت بدينها ، أو جحدت بقرآنها ، أو تنكرت لمحمدها ، وهى لا زالت - فى مجموعها - تؤدى الصلاة وتصوم رمضان وتحج بيت اللّه الحرام ، وتتلوا كتاب اللّه ، وتسمع إليه صباح مساء .

ولقد ظلّت هذه الأمة ثلاثة عشر قرناً ، تُحكم بشرائع الإسلام - على سوء فى الفهم ، أو سوء فى التطبيق ، فى كثير من الأحيان - ولكنها لم تعلن يوماً ما تمردها على أحكام ربها ، حتى جاء الاستعمار التبشيرى ، أو التبشير الاستعمارى فإذا هو يعمل بالقوة حيناً ، وبالحيلة أحياناً على زحزحة هذه الأمة عن منهج ربها وأحكام دينها وشريعتها فى مختلف ميادين الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ويفرض عليها أفكاراً وأحكاماً دخيلة عليها ، غريبة عنها ، وكان المفروض والمتوقع أن تتحرر الأمة من نير الاستعمار الفكرى والتشريعى عقب تحررها من الاستعمار العسكرى والسياسى ولكن مما يؤسف له أن الذى حدث غير ذلك .

فإن شر ما صنع الاستعمار فى بلادنا ليس نهب خيراتنا ، وامتصاص أرزاقنا ، وتعويق نهضتنا فحسب ، بل شر من ذلك كله هو العقليات القيادية التى أنشأها فى ظل سلطانه وأرضعها من لبانه ، ورباها على كراهية الإسلام واحتقاره ، واعتقاد أنه لا يصلح لقيادة الحياة ، وتنظيم الدولة ، وبناء المجتمع ، وأن أقصى حدوده أن يكون صلة بين العبد وربه فلا يجوز أن يتجاوز سلطانه المسجد أو الزاوية أو الخلوة ، ولا يُباح له أن يدخل معترك الحياة قائداً أو موجهاً أو حاكماً . وقد أتاح الاستعمار لهذه العقليات العلمانية أن تسود المجتمع وتقود القافلة ، وتحكم الحياة الإسلامية ، وتصبغ وجه الأمة بغير صبغة اللّه التى رضيها لعباده .

فلا عجب أن رحلت عساكر الاستعمار عن أكثر بلاد المسلمين ، ولكن لم ترحل مخلفاته وآثاره الفكرية والنفسية والاجتماعية ، ووجدنا الذين يحكمون الشعوب الإسلامية - بعد الاستقلال - « خواجات » بغير « قبعات » أى أن الوجوه والأسماء هى التى تغيَّرت وأما الغاية والوجهة فهى هى ، والطريق

هو هو .. الغاية ليست اللّه ولا الآخرة ولا الإيمان ، والطريق ليس هو تربية الإسلام ولا ثقافة الإسلام ولا تطبيق أحكام الإسلام .

ولكن هل رضيت جماهير الأمة الإسلامية عن هذا الاتجاه ؟

لا واللّه . إن جماهير الأمة لتنكر هذا كل الإنكار ، وإنها لا زالت تحب اللّه ورسوله وكتابه . إنها لتعلم حق العلم أن سعادتها - دنيا وأخرى - فى اتباع دينها والاهتداء بكتاب ربها ، وسُنّة رسولها ، وتحكيم أمر اللّه فى شئون حياتها ، وإقامة حدوده عليها . وأن الشقاء والجوع والخوف والمعيشة الضنك - فضلاً عن عذاب اللّه فى الآخرة - هو جزاء كل مَن أعرض عن هُدَى اللّه تعالى وحكمه وشرعه ، وانحرف عن طريقه ونبذ كتابه وراءه ظهرياً .

تؤمن جماهير الأمة الإسلامية بذلك أعمق الإيمان ، وتذكره كلما أصابتها الكوارث ، وأطبق عليها البلاء . وكيف لا واللّه تعالى يقول : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١) ..

ويقول جل شأنه : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (٢) ..﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِه فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ (٣) ..

ونحن نتحدى كل حاكم وكل معارض أن يستفتى الأمة المسلمة استفتاءً حراً نزيهاً مباشراً على هذا الأمر الجلل ، أنُحكم بالقرآن أم بغير القرآن ؟

هذه أخطر قضية فى حياة المسلمين المعاصرة ، ولكن مما لا ينقضى العجب منه

---

(١) طه : ١٢٣ - ١٢٤ (٢) النحل : ١١٢ (٣) الطلاق : ٨ - ٩

أن تُعزل الأمة الإسلامية ، ولا يُرجع إليها فى شأنها ، ولم نجد بلداً إسلامياً واحداً فى عهد احتلاله أو استقلاله استفتى شعبه - ولو مرة واحدة - فى هذا الأمر الخطير ، الذى هو أمر حياة ومصير .

إن الحل الإسلامى وحده هو الذى يزيل التناقض الظاهر فى حياة المسلم ، والصراع الداخلى فى نفسه وفكره . فهو بحكم التزامه بالإسلام منهجاً من عند اللّه ، يؤمن بوجوب الاحتكام إليه عقيدة وعبادة وشريعة وأخلاقاً وآداباً ، وقِيَماً وموازين ، ولكنه يجد الحياة من حوله تُوَجِّه توجيهاً آخر ، إن لم يُعاد الإسلام صراحة أو خفية ، فهو يسقطه من الحساب ، ويهدر اعتباره فى التشريع والتوجيه والتربية والتثقيف ، والمسلم فى حيرة واضطراب فى داخل نفسه من أجل هذا التناقض والازدواج الغريب فى حياته .

أليس من العجب العاجب أن يجد المسلم نفسه مضطراً إلى التحاكم إلى قوانين تخالف شريعته ، وإلى مطالعة صحف تضطهد فكرته ، وإلى سماع إذاعات تناقض اتجاهه ، وإلى مشاهدة « تليفزيونات » و « سينمات » ، هو ساخط عليها فى قرارة نفسه ؟

إنه يتزوج على كتاب اللّه وسُنّة رسوله ، ولكنه يُلْبِس زوجته زياً لا يرضاه اللّه ورسوله . إنه يدفع ضرائب باهظة للحكومة ، ولكنه لا يجد متسعاً لدفع الزكاة المفروضة عليه من ربه . إنه يعتقد حُرْمة الربا ، ولكن عجلة الحياة الاقتصادية - التى صُنِعت له - ستدوسه إذا لم يتعامل به .

هذا الحلّ - إذن - هو الذى ينجينا من الإثم ، وينقذنا من سخط اللّه وعذابه ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، ويسألنا عما أنزل علينا من كتاب أحكمت آياته : ماذا كان موقفنا منه : اتخذناه مهجوراً ؟ أم جعلناه لنا إماماً ودستوراً ؟

هذا الحل هو الذى نستحق به تأييد اللّه وبركته ومعونته ونصره ورزقه وتمكينه ، إذ نكون بذلك قد اتقينا، ونصرناه ، واتبعنا هداه ، واستقمنا على

طريقه . وقد قال تعالى ، وقوله الصدق ووعده الحق : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ (١) .. ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً ﴾ (٣) .. ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (٤) ..

وقد يكون هذا الكلام غريباً فى منطق المادية التاريخية والماديين الجدليين ، وقد يُعَد غير « علمى » فى لغتهم ، ولكن فى نظر المؤمنين متفق كل الاتفاق والعلم والحق والمنطق السديد : ﴿ وَعْدَ اللَّه ، لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٥) ..

* * *

٢ - إقامة التوازن فى حياتنا

والحل الإسلامى وحده هو الذى يحقق التوازن المقسط فى حياتنا الفردية والاجتماعية . فلا تميل به كفة الميزان فى جانب من الحياة على حساب جانب آخر . ذلك أن هذا الحل - من الناحية الموضوعية - هو الحل العادل الوَسَط المتوازن ، الذى برىء من التطرف ، والاندفاع الأعمى إلى اليمين أو اليسار ، فسلم من تفريط الرأسماليين الذين جاروا على حق المجتمع من أجل حرية الفرد ، ومن إفراط الاشتراكيين الذين طغوا على حق الفرد من أجل مصلحة المجتمع ،

---

(١) الطلاق : ٢ - ٣ (٢) الأعراف : ٩٦ (٣) الجن : ١٦

(٤) الحج : ٤٠ - ٤١ (٥) الروم : ٦ - ٧

وسلم من غلو الفريقين فى الاهتمام بالمادة على حساب الروح ، وبالدنيا على حساب الدين ، وبالشهوات على حساب الأخلاق .

وسر الانحراف والاعوجاج والطغيان فى الحلّين الرأسمالى والاشتراكى يرجع إلى أمر واضح بسيط لمن يتدبر . ذلك أن كل حل من هذين جاء نتيجة بيئة معيَّنة ، وعصر خاص ، وملابسات موقوتة .. جاء نتيجةً لانحرافات بارزة ، وألوان من الطغيان قاسية ، أفضت إلى ثورات واندفاعات بَشرية مضادة ، كل همها أن تحطم القديم الماضى ، وتقضى على كل آثاره وتوابعه ، ولم يكن القديم كله شراً ، ولم يكن كله فساداً ، ولكن الثورات - بطبيعتها - لا تبقى ولا تذر ، ولا تصبر على التمييز بين ما يجب أن يبقى وما يجب أن يزول . كل همها هو « التغيير الثورى » تغيير القيَم والمفاهيم والأخلاق والأوضاع القديمة بقيَم ومفاهيم وأخلاق وأوضاع جديدة . ولو عقلوا لعلموا أن القدَم ليس عيباً فى ذاته ، والجدة ليست مزية فى نفسها . فكم من قديم نافع أعظم النفع ، وكم من جديد ضار أشد الضرر . على أن القدَم والجدة أمر نسبى ، فقديم اليوم كان جديداً بالأمس ، وجديد اليوم سيصير بعد حين قديماً . وعند ذلك تجب الثورة عليه أيضاً ، ومحوه وتغييره بجديد آخر . وهكذا يصبح مرور الزمن وحده هو الحاكم على الأشياء بعدم الصلاحية للبقاء ، فليس هناك قيمة ثابتة ، ولا حقائق دائمة ، ليس هناك خير وشر ، وليس هناك فضيلة ورذيلة ، وليس هناك حق وباطل ، وإنما هناك - فقط - قديم وجديد ، والقديم هو الباطل والجديد هو الحق ! فما أسخف هذا التفكير وما أضله عن سواء السبيل !!

إن الفَرْق بين الحل الإسلامى العادل وبين الحلول البَشرية القاصرة ، هو الفَرْق بين الألوهية الكاملة ، والبَشرية الناقصة .. الألوهية التى تعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ ﴾ (١) .. والبَشرية التى تعلم من يومها شيئاً وتغيب عنها أشياء ،

---

(١) آل عمران : ٥

والتى تجهل ماذا يخبئه الغد القريب فضلاً عن البعيد .. الألوهية الحكيمة العادلة ، والبَشرية العجول الظلوم ، ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً * وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالخَيْرِ ، وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ [1] ..

فالقرآن يهدى إلى أقوم المناهج وأعدل الطرق ، لأنه كتاب الألوهية الحكيمة ، أما الإنسان فهو مخلوق ينفعل ويثور ويغضب فيدعو بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً .

إن الحلّ الإسلامى هو الصراط المستقيم الذى لا عِوَج فيه ولا انحراف ، والطريق المستقيم هو أقرب موصل إلى الهدف ، والطرق الملتوية المتعرجة قد تبعد الإنسان عن الهدف نهائياً ، وقد تصل به إليه بعد أن يقطع من المفاوز والمهالك ما يذهب بقوته ، وراحته وهنائه . وطرق البَشر ينقصها الاستقامة والاعتدال ، كلها لا تخلو من انحراف إلى اليمين أو اليسار . كلها يميل إلى الإفراط والتفريط ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك موقف البَشر - من قديم الزمان - من الفردية والجَماعية (أى الاشتراكية) ، ومن الروحية والمادية ، ومن الثبات والتطور .

فمنذ عصر اليونان - كما ذكر الأستاذ صلاح الدين السلجوقى فى محاضرة له [2] - قام صراع فكرى بين العقيدة الفردية والفكرة الاشتراكية ، إلى درجة التبس فيها الأمر على المفكرين : هل الإنسان فى طبيعة حاله ، كائن اجتماعى أو كائن فردى ، أو أيهما أقوى : فردية الفرد أم اجتماعيته ؟ .

---

(١) الإسراء : ٩ - ١١

(٢) بعنوان : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » ألقيت بقاعة المحاضرات بالأزهر . ونشرت ضمن الموسم الأول .

« كان أفلاطون يعتقد أن الإنسان اشتراكى أكثر منه فردياً . وحينما حاول أن يضع كتابه عن الفلسفة الخُلُقية ، لم يجد سوى أن يكتب كتابه المعروف باسم « الجمهورية » لأنه لم يكن قادراً على مشاهدة الإنسان فى غير مرآة المجتمع أو الجمهور .

« ولما جاء تلميذه أرسطو لم يخالف أستاذه أفلاطون إلا فى شيئين ، الأول : فى مسألة « المثل » ولكنه فى آخر الشوط اتخذ من المُثُل الأفلاطونية أساساً لعلم المنطق . والثانى : فى اشتراكية الفرد . فأرسطو - خلافاً لأستاذه أفلاطون - يعتقد أن الإنسان فردى أكثر منه اشتراكياً .

« فصراع الفيلسوفين الكبيرين لم يكن ليحل المعضلة ، بل زاد فى شقة الخلاف بين الفكرتين ، ولم يكن هنالك أى مرجح لإحداهما ، لأن أفلاطون كان بطبيعة حاله من طبقة الفقراء المعدمين ، بينما أرسطو - فى تربيته - كان من الأمراء المترفين . وظل هذا الصراع مستمراً بين الأكاديمية الأفلاطونية وبين مدرسة المشّائين لأرسطو .

« وكان هنالك دور اليهود المشردين فى الأرض . لقد جمعوا رؤوس الأموال ، وأخذوا الربا وعملوا على الاحتكار والاستثمار . وكلها أمور تؤيد الفردية .

« وكان هنالك قياصرة فى الغرب وأكاسرة فى الشرق ، وأباطرة فى مصر واليونان ، دعموا بنظمهم روح الفردية

« حتى جاء المسيح عليه السلام ، وكان من بين دعوته « نجاة الفرد » ، وبعد المسيح حذت الكنيسة فى تفكيرها حذو أرسطو ، فطغت الفردية طغياناً جارفاً . ولكن اللّه المقسط وضع سُنّته ونظامه الطبيعى والأدبى بالقسط . فكلما خرج شىء من العالم الطبيعى أو الأدبى عن القسط والاعتدال ، أنتج عكس العمل واندفع إلى الضد .

« وهكذا وقع صراع عملى ، بل ودموى ، بين الفردية والاشتراكية ، كما كان هناك صراع فكرى منذ زمن بعيد . فقام « مزدك » المعروف فى فارس بفكرة

اشتراكية بحتة على مستوى الشيوعية ، وكانت هناك ضجة كبرى وصدام عنيف قبل ميلاد سيدنا ومولانا محمد عليه الصلاة والسلام بقليل .

« إن المسائل الفلسفية المرتبطة بالطبيعة والعناصر والأجسام والأفلاك ، إذا وقع بشأنها خلاف بين العلماء والفلاسفة ، فلا يترتب عليه أى أثر اجتماعى .. وأما الأمور المتعلقة بالفلسفة الاجتماعية ، كمسألة فردية الإنسان واشتراكيته ، فهى من المسائل التى تفضى إلى النزاع ، بل إلى الصدام الدموى . والدين فى ذاته هو الحجر الأساسى للعلوم الاجتماعية ، وهو الذى يقرر علاقة الفرد بالفرد وعلاقته بالمجتمع ، وعلاقة الإنسان بالمبدأ المقدس الذي هو عين الحق ومصدر الخير وينبوع الجمال .

« لهذا بعث اللّه محمداً عليه والصلاة والسلام ، وأنزل عليه الفرقان الذى قضى على الإفراط والتفريط فى الفردية والاشتراكية ، وهما اللذان كانا على صراع دائم ولا يعرفان الوَسَط » ا هـ .

وفى العصر الحديث قام النزاع ، واشتد الصراع مرة أخرى بين الفردية والجَماعية فى المجالات الفكرية والعملية كما نرى ذلك واضحاً فى تاريخ الفكر الغربي الحديث .

فقد كانت النزعة الفردية (L'individualism) قوية فى القرن الثامن عشر - كما ظهر ذلك فى المذاهب الأخلاقية الكبرى ، فقد اتجهت إلى ذات الفرد مهملة سُلطة المجتمع .

ولكن القرن التاسع عشر قد تصدى لمقاومة هذه الفردية وتغليب النزعة الجَماعية ، وكان من دلالات هذا أن نهض « كونت » بإقامة علم الاجتماع والانتصار لسُلطة المجتمع رداً على الفردية التى اعتقد أنها كفيلة بنشر الفوضى والتحلل .

وفى مطلع القرن العشرين ارتد المفكرون إلى الفردية ، ونشأ المذهب التاريخى (L'historicisme) على يد « بندتو كروتشه » ١٩٥٢ ، و « آرون »

وبه أصبح نشاط الذات مركزاً يدور حوله كل شيء ، فإذا كان « كونت » وأقرانه من مفكرى القرن التاسع عشر قد زعموا أن التاريخ يوجه الفرد ، فإن أصحاب المذهب التاريخى يقولون : إن الفرد هو الذى يحدد معنى التاريخ .

واشتدت صيحات الاحتجاج على طغيان المجتمع على حرية الفرد ، وتجلى هذا عند القصّاصين والفنانين والاقتصاديين ممن رفضوا سيطرة الحكومة والهيئات على النشاط الاقتصادى ، ورأوا فى حرية التصرف عند الفرد مصدر ثراء لا يخفى . وجرى فى التيار طلاّب الحرية السياسية والداعون إلى حقوق الإنسان ، وفى ميدان علم الاجتماع تجلى الخلاف بين « دوركايم » و « تارد » فى مطلع القرن العشرين ، فجاهر تارد - رداً على دوركايم - بإرجاع الظواهر الاجتماعية إلى الظواهر النفسية المتبادلة بين الأفراد . عن طريق التقليد الذى يوجد بين الأفراد ، ويجعل الضمير الاجتماعى مجرد انعكاس لضروب مختلفة من هذا التقليد .

ويقول « إميل برييه » : إننا إذا أخذنا بوجهة النظر التى قال بها « چورج چورفتش » فى مؤلفه الحديث « الاتجاه الحالى لعلم الاجتماع » قلنا : إن المناقشة فى موضوع العلاقة بين الفرد والمجتمع قد أصبحت اليوم غير ذات موضوع فمن المستحيل أن ننظر اليوم إلى الفرد والمجتمع ، كما لو كان كل منهما منعزلاً عن الآخر ومستقلاً بذاته .. وقد انتهى « چون ديوى » بعد البحث فى آراء الكثيرين من علماء الاجتماع المعاصرين ، إلى أن لفظى الفرد والمجتمع غامضان غموضاً شديداً ، وأن هذا الغموض سيستمر قائماً طالما اعتبر الفرد والمجتمع لفظين متضادين .

وقد رفض المعاصرون من علماء الاجتماع - فرنسيين وأمريكيين - رأى دوركايم الذى اعتبر فيه الفرد دمية يحرك المجتمع خيوطها ، وتخضع لنظام لا دخل لها فى وضعه إطلاقاً ، فذهب « مارسل موس » إلى أن الإنسان يتصف بجميع الصفات التى يتصف بها المجتمع بأكمله . وصرّح « كيفلييه » فى كتاب وضعه حديثاً تحت عنوان : « محصل علم الاجتماع » بأن الفضل فى إيضاح العلاقة

بين الفرد والمجتمع مرده إلى علماء النفس الذين عالجوا البحث فى المشكلة الخاصة بمعرفة الآخرين . فرفضوا الرأى الذى ذهب فيه علم النفس التقليدى إلى أن معرفة الآخرين تتم نتيجة استدلال يقوم على المقارنة ، واعتبر شعورنا عالماً صغيراً مغلقاً ، فذهب المعاصرون من علماء النفس إلى أن الطبيعة البَشرية لا توجد كاملة منذ ولادة الإنسان ، بل يكسب الإنسان وجودها بالتدريج أثناء حياته فى المجتمع .. وصفوة القول إن الفرد فى نظر المعاصرين من الاجتماعيين والسيكولوچيين مركب تركيباً اجتماعياً يتعذر الفصل بين أجزائه » [١] .

وهكذا انتهى الفكر المعاصر المعتدل - بعد لأى وجهد - إلى ما جاء به النبى الأُمِّى محمد بن عبد اللّه منذ أربعة عشر قرناً ، من المنهج الوسط الذى وازن بين الفرد والمجتمع ، فى الحقوق والواجبات بلا إفراط ولا تفريط وأقام على هذا المنهج الأمة الوَسَط التى كانت خير أُمة أُخرجت للناس .

* * *

٣ - علاج المشكلات من جذورها

إن الحل الوحيد الذى يعالج المشكلة من جذورها ، ويتناولها من جميع زواياها فلا يكتفى بالطفو على السطح ، ولا يعالج البثرات التى تظهر فوق الجلد على حين يمور الجوف بأسباب الداء .

إنه يعنى بالجانب الاقتصادى فى الحياة ، والجانب المادى فى الإنسان ، ويعنى عناية كبيرة بتدبير المعيشة ، وزيادة الإنتاج ، والمحافظة على الأموال التى جعلها اللّه للناس قياماً ، والعمل على تنمية الثروة ، والعدل فى توزيعها ، ويعمل على تحقيق التأمين الاجتماعى والتكافل الاجتماعى ، كما يهتم بالجسم الإنسانى وصحته وقوته ، ولكن لا يرتضى ذلك غاية للمسلم ومحوراً لحياته ، ولا يجعله أكبر همه ومبلغ علمه .

---

(١) الفلسفة الخُلقية - نشأتها وتطورها - للدكتور توفيق الطويل .

الحياة ليست اقتصاداً فحسب ، وليست كل مشكلتها نقص الإنتاج ، أو سوء التوزيع . وليس الإنسان مجرد « حيوان اقتصادى » كما يزعم المتطرفون ، كل همة إشباع رغباته المادية ، وكل عمله البحث عن وسائل إشباعها ، فإذا زدنا الإنتاج ، ونظمنا توزيع السلع والخدمات ، فقد انحلت العقدة ، وارتفعت الشكوى ، وطابت الحياة وسعد الإنسان !

لقد نسى هؤلاء أن النفس الإنسانية ، وما تملكه من فكرة عن الوجود ونظرة إلى الحياة ، ومثل للسلوك ، هى العامل الأول ، الذى بدونه يفشل كل حل ، وينتكس كل علاج ، ولقد كان الشاعر العربى القديم أدق نظرة وأعمق فكرة ، من هؤلاء الذين يدّعون العلم والخبرة بشئون الناس والحياة ، حيث قال :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق !

وما أصدق القرآن الكريم حين بيّن سُنَّة الله تعالى : أن التغيير المادى للجماعات إنما يتبع تغيير أنفسها (على عكس الماركسية تماماً) . فإذا أردنا تغيير حياتنا الاقتصادية إلى حياة أفضل فلنغير حياتنا النفسية ، فلنغير أخلاقنا وأفكارنا وسلوكنا أولاً إلى ما هو أهدى وأقوم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) ..

إن عيب تلك الحلول المستوردة كلها أنها حلول مادية محض ، لا يهمها فى الحياة إلا الجانب الاقتصادى ، ولا يعنيها من الإنسان إلا دنياه العاجلة ، وإلا غلافه الجسدى وغرائزه الحيوانية ، فأما الدار الآخرة وحسابها ، وأما الروح وأشواقها وتطلعاتها إلى عالم الخلود والكمال ، وظمؤها إلى الاتصال بالملأ الأعلى ، والقُرب من رب العالمين ، الرحمن الرحيم - فهذا شىء لا يخطر لهذه الأنظمة والمذاهب الجديدة على بال ، هذا إن لم تنكره وتطارده وتضطهده وتُضيِّق عليه الخناق فكراً وعملاً .

---

(١) الرعد : ١١

عيب تلك الحلول البَشرية أنها دائماً قاصرة وعاجزة عن النظرة الشاملة ، والنفاذ إلى الأعماق ، والإحاطة بجميع الجوانب ، فهى جزئية ، ووقتية وموضعية وسطحية وناقصة ، وهذا شيء « ذاتى » فيها لا أمر عارض لها ، وما بالذات لا يتخلف ، كما يقول أهل المنطق . ذلك لأن هذا القصور يرجع إلى طبيعة الذين وضعوها وإلى حدود طاقتهم وإمكاناتهم ، أى يرجع إلى طبيعة الإنسان .

« فالإنسان لأنه أولاً محدود الكينونة من ناحية الزمان والمكان ، إذ هو حادث فى زمن ، يبدأ بعد عدم ، وينتهى بعد حدوث ، ومتحيز فى مكان ، سواء أكان فرداً ، أو كان جيلاً ، أو كان جنساً ، لا يوجد إلا فى مكانه ، ولا ينطلق وراء المكان ، كما أنه لا يوجد إلا فى زمان - ولا ينطلق وراء الزمان ، ولأنه محدود الكينونة من ناحية العلم والتجربة ، والإدراك ، يبدأ علمه بعد حدوثه ، ويصل من العلم إلى ما يتناسب مع حدود كينونته فى الزمان والمكان ، وحدود وظيفته كذلك ، ولأنه - فوق أنه محدود الكينونة بهذه الاعتبارات كلها - محكوم بضعفه وميله ورغبته ، فوق ما هو محكوم بقصوره وجهله .

« الإنسان - وهذه ظروفه - حينما يفكر فى إنشاء تصور اعتقادى من ذات نفسه ، أو فى إنشاء منهج للحياة الواقعية من ذات نفسه كذلك - يجيء تفكيره محكوماً بهذه السمة التى تحكم كينونته كلها ، يجيء تفكيره جزئياً : يصلح لزمان ولا يصلح لآخر ، ويصلح لمكان ولا يصلح لآخر ، ويصلح لحال ولا يصلح لآخر ، ويصلح لمستوى ولا يصلح لآخر .. فوق أنه لا يتناول الأمر الواحد من جميع زواياه وأطرافه ، وجميع ملابساته وأطواره ، وجميع مقوماته وأسبابه ، لأن هذه كلها ممتدة فى الزمان والمكان ، وممتدة فى الأسباب والعلل ، وراء كينونة الإنسان ذاته ، ومجال إدراكه .. وذلك فوق ما يعتور هذا التفكير من عوامل الضعف والهوى ، وهما سمتان إنسانيتان أصيلتان .

« لذلك لا يمكن أن تجيء فكرة بَشرية ، ولا أن يجيء منهج من صنع البَشرية ، يتمثل فيه الشمول أبداً ، إنما هو تفكير جزئى وتفكير وقتى ، ومن جزئيته يقع

النقص ، ومن وقتيته يقع الاضطراب الذى يحتم التغيير ، ويتمثل فى الأفكار التى استقل البَشر بصنعها ، وفى المناهج التى استقل البشر بوضعها دوام « التناقص » أو دوام « الجدل » المتمثل فى التاريخ الأوروبى .

فأما حين يتولى اللّه سبحانه - ذلك كله .. فإن التصور الاعتقادى ، وكذلك المنهج الحيوى المنبثق منه ، يجيئان بريئين من كل ما يعتور الصفة البَشرية من القصور والنقص والضعف والتفاوت » [١] .

وهكذا كان الحل الإسلامى - وهو ربانى المصدر - متميزاً بشمول النظرة وعمقها إلى الحياة بجميع جوانبها ، وإلى الإنسان بجميع خصائصه وجميع حاجاته الظاهرة والباطنة ، المادية والروحية ، الفردية والاجتماعية ، لأنه لا يحيط بجميع خصائص الإنسان ، وجميع حاجاته إلا خالق الإنسان ، ورب الإنسان : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ [٢] ..

الحل الإسلامى هو الذى يتجاوز الجانب المادى إلى الجانب النفسى والمعنوى ، فيوجه عناية بالغة إلى « الكائن الداخلى » فى الإنسان ، إلى تلك المضغة التى إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب .

القلب هو تلك اللطيفة الربانية التى بها يحس الإنسان ويشعر ، ويحلّق ويدرك بالبصيرة ما لا يدرك بالبصر ، ويفقه من الحقائق ما لا يستوعبه المنطق : ﴿ فَإِنَّها لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ [٣] .. ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [٤] .. ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [٥] .. « إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » [٦] ..

---

(١) خصائص التصور الإسلامى للشهيد سيد قطب ص ١٠٧ - ١٠٨

(٢) الملك : ١٤ (٣) الحج : ٤٦ (٤) سورة ق : ٣٧

(٥) الشعراء : ٨٨ -٨٩ (٦) رواه مسلم .

ذلك القلب الذى لا يستشعر الطمأنينة إلا بمعرفة اللّه تعالى وذكره ، والاعتصام به ، ولا تهب عليه نسمات السكينة المنعشة إلا من رياض الإيمان باللّه : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ ، أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١) ، ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُواْ إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (٢) ..

الحل الإسلامى هو الحل الوحيد الذى يقوم على أساس من العلم بحقيقة الإنسان والاعتراف بالواقع والفطرة ، ولهذا يعترف بهذا الكائن المعنوى فى الإنسان « القلب » أو « الروح » أو « الضمير » ويسعى لرى ظمئه ، وإشباع نهمه ، وقضاء وطره ، بذكر اللّه تعالى وشكره ، وحُسن عبادته ، ويعده لحياة الخلود فى الآخرة ، فهو حل يصل الدين بالدنيا ، وينير العقل والقلب ، ويبنى المسجد مع المصنع ، ويُعلى المئذنة كما يُعلى المدخنة ، وبهذا تتكامل الحياة ويسود التوازن ، وتسير فيها الروح والمادة جنباً إلى جنب ، والاقتصاد والعبادة كتفاً إلى كتف ، والدنيا والآخرة قدماً إلى قدم : ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ (٣) ..

إن أثمن ما على هذه الأرض وما فيها ليس قمحها وفاكهتها ، ولا نفطها وحديدها ، ولا فضتها وذهبها ، إن أثمن ما فى الأرض وما عليها هو الإنسان ، الإنسان الذى كرّمه اللّه وجعله فى الأرض خليفة ، الإنسان الذى سَخَّر كل ما فى الأرض وما فوقها لخدمته ومنفعته . وأثمن ما فى الإنسان ليس هيكله العظمى وما يكسوه من لحم ، وما يحتويه من عصب ، وما يجرى فى عروقه وشعيراته من دم ، فربما كان لبعض الحيوانات هياكل أقوى وأضخم مما للإنسان .

---

(١) الرعد : ٢٨ (٢) الفتح : ٤ (٣) النور : ٣٧

إن أثمن ما فى الإنسان روحه وقلبه الذى ميَّزه الله به على غيره وجعله جهازالاتصال الذى يصله بالسماء ، ويدنيه من ربه الذى فتح له بابه ، ولم يجعل عليه حارساً يرد الطارقين أو يزجر السائلين ، بل يقول فى كتابه الخالد : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ (١) .. ويقول فى حديثه القدسى : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، إذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرَّب إلىَّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرَّب إلىَّ ذراعاً تقرَّبتُ إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » (٢)

قد يقول السطحيون : ما دخل هذا الكلام فى علاج المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ؟

ونقول : إن أساس المشكلة كلها هو الإنسان . وكل علاج لها يتجاهل حقيقة الإنسان وحاجات روحه وأشواق قلبه ، إنما هو علاج سطحى ، أشبه بالأقراص المسكنة ، والأدوية المخدرة ، التى تهدىء الألم ساعات من الزمن ، ولكنها لا تقتلع جرثومة الداء ، ولا تصل بالمريض إلى نهاية الشفاء .

إن الذين نظروا إلى الإنسان باعتباره « حيواناً منتجاً » أو « كائناً اقتصادياً » لا غير (٣) ، كل عمله أن ينتج ويستهلك ، وكل همه أن يأكل ويتمتع ، قد جهلوا الإنسان أكبر الجهل ، وبخسوه حقه أعظم البخس ، وأساءوا إليه أعظم الإساءة ، وكان من نتيجة جهلهم بحقيقة الإنسان أنهم لم يستطيعوا أن

---

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) رواه البخارى .

(٣) أقام ماركس نظريته على أساس أن الإنسان حيوان منتج ، وبالتالى أصبح الإنتاج أعظم مقومات الحياة فى المجتمعات البشرية ، وأصبح أسلوب الانتاج الذى يتألف من القوى المنتجة وعلاقات الانتاج هو العامل الحاسم فى سير التاريخ وتوجيه أحداثه . ولكن بعض نقاد ماركس قد لاحظوا أن الانتاج نفسه تميزه صفات للإنسان تجعله ممكناً ، منها أن تكون للإنسان مطالب غير مطالب الحيوان ، وقدرة تمكنه تدبير مطالبه بالإنتاج ، وإنتاج ما يريد وفقاً لمطالبه وكفاياته . وهذه مقدمات ينشأ عنها الإنتاج ، ولا يكون سبباً فى وجودها !

يحققوا له السكينة والسعادة التى ينشدها ، بل زادوا حياته بؤساً ونكداً ، وزادوا بحلولهم القاصرة مشكلاته تعقيداً على تعقيد .

إذا استشفيتَ من داء بداءٍ فأقتل ما أعلّك ما شفاك

إن الإسلام - كما قال عالم هندى مسلم - يذهب إلى أبعد مما تذهب إليه الرأسمالية والشيوعية ، حين ينظر إلى الإنسان نظرة تسمو به عن أن يكون مجرد « محصلة » كيماوية لغدده الصماء . والمفهوم البلشفى (الشيوعى) للفردوس الاجتماعى لا يذهب إلى أبعد من إقامة « حديقة حيوان » يضمن لكل واحد فيها - بعد اعتناقه البلشفي - أن يطعم ويتناسل ، وأمام قضبان كل قفص تصطنع مشاهد فجة للتسلية والترفيه ، بعد أن تجيزها رقابة صارمة !! أما الإسلام فهو يضمن فردوساً كاملاً دون حواجز أو عراقيل مكدرة .

* *

● الحل الأول هو الحل الأخير :

وهذا الذى نقوله قد قاله وأعلنه بعض الزعماء العرب الذين يدعون اليوم إلى الحل الاشتراكى الثورى ، ويرونه حتماً لازماً لعلاج مشكلات أمتنا ، وأكتفى هنا بما كتبه الرئيس المصرى الراحل فى مقدمة كتاب « العدالة الاجتماعية وحقوق الفرد » الذى صدر فى سلسلة « اخترنا لك » سنة ١٩٥٤ فكان مما قال :

« ثم يميل بعضهم إلى هذا الجانب ، ويميل بعضهم إلى ذلك ، وتتعدد الآراء ، وتتعارض المذاهب ، وتصطرع العقول والقلوب ، وتنشأ الجماعات المختلفة تدعو كل جماعة منها لمذهب ويشتغل الفلاسفة وأهل الفكر فى كل أمة ليخترعوا « نظاماً » يفض المشكلة ، ويحل العقدة ، ثم نسمع عن : الرأسمالية والاشتراكية والنازية والفاشية والشيوعية والفوضوية ، وعن نظم مادية أخرى لا يكاد يبلغها الإحصاء وليس فى واحد منها حل صحيح لمشكلة الفرد والمجتمع ، لأن مشكلة الفرد والمجتمع مشكلة إنسانية قبل أن تكون مشكلة مادية ،

فلا سبيل إلى حلها إلا بتربية الشعور الإنسانى فى نفوس الجماهير ، وتوثيق أواصر الأخوة الإنسانية بين البَشر .

ونقف نحن العرب والمسلمين فى هذا الجانب من العالم نشهد الصراع الذى يدور بين هذه المذاهب المادية المبتدعة ، ونرقب المعارك الناشبة بين الشعوب وحكوماتها حول تلك المذاهب ، فنعجب أشد العجب ، من تلك المذاهب والذاهبين فى سبيلها من الحكومات ومن الشعوب على السواء ، لأن مشكلة الفرد والجماعة التى حيَّرت كل المفكرين والفلاسفة ، فى أوروبا منذ قرنين أو منذ قرون ، قد وجدت الحل الصحيح فى بلادنا ، منذ ألف وثلاثمائة سنة ، منذ نزل القرآن على محمد بن عبد الله ، يدعو إلى الأخوة الإنسانية ، ويفصِّل مبادىء العدالة الاجتماعية ، على أساس من التراحم والتكافل الأخوى ، والإيثار على النفس فى سبيل النفع العام للجماعة ، من غير طغيان على حرية الفرد ، ولا إذلال له ، ولا إنكار لذاتيته : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ ﴾ (١) ..

« ذلك هو النظام .

« فليكتف المفكرون والفلاسفة بما بذلوا من جهد ، ولا يبحثوا منذ اليوم عن حلول أخرى لمشكلة الفرد والمجتمع .

« إن عندنا الحل .

« الحل الأول الذى نزل به الوحى على نبينا منذ ألف وثلاثمائة سنة ، هو الحل الأخير لمشكلة الإنسان » .

فليت شِعرى أين من هذا الكلام النابض بالحياة ، الزاخر بالأصالة ، ما يقال اليوم عن « حتمية الحل الاشتراكى » وضرورة التغيير الثورى ، والسيطرة الكاملة على وسائل الإنتاج ، وتصفية الرجعية ، وأن « الاشتراكية العلمية »

---

(١) النحل : ٩٠

- أى الماركسية - هى الصيغة الملائمة لإيجاد المنهج الصحيح للتقدم .. وأن أى منهج آخر لا يستطيع - بالقطع - أن يحقق التقدم المنشود (ص٧٣ من الميثاق) وأن الصراع الحتمى والطبيعى بين الطبقات لا يمكن تجاهله أو إنكاره (ص٦٣ منه) .

ترى هل نسخت الاشتراكية العلمية التى جاء بها اليهودى العريق « ماركس » الحل الأول الذى نزل به الوحى على نبينا منذ ألف وثلاثمائة سنة ؟!!

* * *

٤ - تكوين الإنسان الصالح

إن الليبرالية الديمقراطية غفلت - أو عجزت - عن شىء جد مهم ، وجد ضرورى ، وهو : تكوين « الإنسان الصالح » ، الذى عليه يقوم الحكم الصالح ، الإنسان الذى يحسن اختيار ممثليه إذا كان منتخباً ، ويحسن تمثيل منتخبيه إذا كان نائباً ، ويحسن القيام بأمانة المسئولية إذا كان حاكماً ، وبدون هذا الإنسان الصالح لا تصلح حكومة ولا يصلح مجتمع ، وإن أجرى الانتخابات ، وأقام البرلمانات .

لهذا نظر كثير من المؤرخين والمفكرين إلى الديمقراطية باعتبارها وهماً لا حقيقة ، حتى قال جان جاك روسو : « إن الديمقراطية الحقيقة هى حكم الآلهة لا حكم البَشر » [١] !

وقال جاك مارينان : « إن مأساة الديمقراطيات الحديثة ، هى أنها لم تنجح فى تحقيق الديمقراطية » !

وما غفلت ، أو عجزت عنه الديمقراطية ، لم تنتبه له أو تقدر عليه الاشتراكية ، إن لم تكن أكثر غفلة وعجزاً عنه .

---

(١) انظر : الإسلام وتحديات العصر ص ١٢٦

أما النظام الإسلامى فإن أول ما يعنى به هو تكوين الإنسان الصالح ، وعلى هذا الأساس تقوم أجهزته كلها فى جوانب التربية والتثقيف والإعلام والتوجيه والتشريع والتنظيم .

ومن هنا نجد « الحل الإسلامى » لا يعتمد على سيف السلطان ، وسوط القانون ، ورقابة الحكومة فحسب ، كما هو شأن الحلول البَشرية الأخرى ، إنما يعتمد بجوار ذلك على الضمائر الحية ، والقلوب المؤمنة ، التى تحوطه وترعاه وتستجيب لأوامره ، وتنهى عن محظوراته ، ذلك لأنه ليس حلاً ناشئاً من الأرض ، ولكنه منزَّل من السماء ، ليس حلاً صادرَاً عن عقل بَشر ، ولكن من عند اللّه رب العالمين .

والحل الذى لا يقوم إلا على إرهاب السُلطة التنفيذية ، حل فاشل عاجز ، فإن الإفلات من قبضة هذه السُلطة مع ارتكاب أشنع الجرائم ، أمر مستطاع وميسور ، وماذا يستطيع أن يعمل القانون أمام لص أو مرتش أو مزوِّر أو مخرِّب يتصرف فى جريمته بإحكام واحتيال ، بحيث لا تراه عين ، ولا تضبطه يد ، فلا يجد القانون إليه سبيلاً ؟؟ وخاصة إذا كان الأمر أمر عصابة ، متعاونة على الشر ، تدبر أمرها بإحكام ، وتخفى جرائمها بدهاء ومكر ، إن صمام الأمان هنا هو الضمير ، هو الخُلُق ، ولا ضمير ولا خُلُق بلا إيمان .

لقد أنشأ النظام الاشتراكى فى مصر جمعيات تعاونية استهلاكية ، كان الهدف منها - كما قالوا - خدمة الشعب ، وتقديم أجود السلع له بأرخص الأسعار ، فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة سرقات هائلة ، وخيانات شنيعة ، بأرقام مذهلة ، واحتيالات عجيبة ، للإثراء على حساب الشعب ، وممن ؟ من القائمين على أمر هذه الجمعيات أنفسهم من المديرين ومَن وراءهم ، مما جعل الشعب المصرى الساخر يردد المثل القائل : « حاميها حراميها » وكما قال الشاعر :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب ؟؟

وأنشئت مصانع ضخمة وأُعِدت لها أفخم المبانى ، وأُحْضِرت لها أرقى الأجهزة ولم تمض سنوات قليلة حتى عطل كثير من الماكينات ، وخرب كثير من الأدوات ، وأصبح المشروع يخسر أكثر مما ينتج ويربح ، وقال فى ذلك الرئيس المصرى : ماذا نفعل أكثر مما فعلنا ؟ لقد استوردنا المصانع ، واستوردنا الأدوات ، واستوردنا الأساليب ، فهل نستورد الرجال أيضاً ؟ هل نستورد الضمائر والأخلاق ؟

ولكن مما لا حيلة فيه أن الضمائر والأخلاق لا تُشترَى ولا تُستورَد ، لأنها صناعة محلية ذاتية ، ولا يصنعها فى ديارنا إلا شىء واحد مجرب ، هو الإيمان ، الإيمان باللّه تعالى ورسالاته والدار الآخرة ، وبعبارة موجزة : « الإيمان برسالة الإسلام » .

كثيراً ما كتب الكاتبون عن فقدان الشعور بالمسئولية ، وأنه الداء الكامن وراء كل إهمال للواجبات وكل تعطيل للطاقات ، وكل تعويق للمشروعات وكل تأخير للعمل ، وكل خيانة للأمانات

وكثيراً ما كتب الكاتبون كذلك أن دواء هذا الداء المنتشر انتشار النار فى الحطب إنما هو غرس هذا الشعور الراقى فى أنفس المواطنين وتوجيههم له وتوعيتهم به ..

ولكنى أسأل : أى مسئولية تلك التى نريد أن نغرسها فى نفس المواطن ؟ أهى المسئولية أمام الوطن أو المجتمع أو التاريخ ؟ ألا ما أجملها من عبارات حلوة الوقع على الأسماع ! ولكنها لا تنتج فى مجال السلوك عفافاً ولا أمانة ولا فضيلة .. فما الوطن وما التاريخ وما المجتمع بالنسبة للفرد العادى ؟ إنها ألفاظ جوفاء ، لا مدلول لها عنده ولا أثر .

سيقول بعض الناس : إن هذه الأشياء يمكن أن تتجسد فى جهاز إدارى أو قضائى يراقب كل عمل ، ويسأل كل مقصر عن تقصيره ، وكل مسرف عن إسرافه ، وكل معوِّق عن تعويقه .

ولكن هل هذا يغنى : ما دام فى الناس الشطار والأذكياء الذين يعدون لكل أمر عُدّته ، ويحضِّرون لكل سؤال جواباً ، ويعفون على آثار كل جريمة ، وفى التمويه مجال ، وفى الكذب متسع ، وفى إلقاء التبعة على الغير فرصة ، وخاصة إذا كان وراء الأمر عصابة تخطط له وتحكمه وتنظمه .

ثم يزداد الطين بلّة ، والداء علّة ، إذا عمّ البلاء وطفح الكيل ، واستشرى الفساد هنا وهناك وهنالك .. حينئذ يستعصى الأمر على مَن يريد إصلاحه من السطح لا من الجذور . لقد اقترح أحد المحافظين فى الجمهورية العربية المتحدة على وزير الإسكان نقل القائمين على شئون الإسكان فى محافظته بعد أن كثرت فيهم الشكوى ، وعُرِف منهم الخيانة ، فقال الوزير للمحافظ بصراحة : إذا كان الكل هكذا ، فمن أين آتيك بالشرفاء والطيبين ؟!!

لا بد إذن من غرس المسئولية أمام اللّه فى الآخرة . هذه وحدها هى التى تجدى ، وتصنع الضمائر الزاكية ، والأنفس اليقظة . إنه لا بد لاستقرار المجتمع من سيادة القانون ، ولا يمكن سيادة القانون إلا بسيادة الأخلاق ، ولا يمكن أن تسود الأخلاق إلا فى رحاب الإيمان [1] .

* * *

٥ - تحقيق الاستقرار والطمأنينة فى حياة الأمة

ومن مزايا الحل الإسلامى : أنه الحل الذى يحقق للأمة الاستقرار والطمأنينة ، ويرسى حياتها على دعائم ثابتة لا تهن ولا تتزلزل ، لأنها من صنع اللّه ووحى السماء ، وبذلك تأمن الاضطراب بين المذاهب والنزعات ، والتقلب بين اليمين واليسار ، والتأرجح بين هذا المعسكر وذاك .

ذلك أن هذا الحل هو الحل الفذ الذى تتلقاه طبقات الأمة كلها بالقبول ، وتستقبله بالرضا ، لأنه نابع من روحها ، مطابق لعقيدتها ، نابت من أرضها ،

---

(١) راجع فصل « الإيمان والأخلاق » من كتابنا : « الإيمان والحياة » .

متجاوب مع مشاعرها ، متصل بأعماقها ، وليس دخيلاً عليها ، ولا غريباً عنها . ومن هنا لا يجد عداءً ولا مقتاً ولا مقاومة ولا سخطاً ، ما يجده أى حل آخر يُستورد من الشرق أو الغرب ، ويُفرض على الأمة فرضاً بغير اختيارها ولا رضاها ، بل بسلطان القوة وقوة السلطان . ولهذا يجر غالباً إلى الصراع والعنف ، والصدام الدموى بين الشعب والسُلطة الحاكمة ، وقد تستكين أغلبية الشعب لسُلطة الحديد والنار ، وتغضى على القذى كرهاً ، ولكن المرجل سيظل يغلى حتى ينفجر بعد حين يقصر أو يطول . وهذا هو سر الهزات الاقتصادية المتكررة ، والقلاقل الاجتماعية الدائمة ، والاضطرابات السياسية المتتابعة ، والانقلابات العسكرية المتوالية ، مما جعل كثيراً من البلاد الإسلامية تخوض بحراً من الدم ، وتعبر جسوراً من الجماجم ، وتجتاز كثباناً من أشلاء الضحايا ، الذين يُعدمون أو يُسجنون ، أو يُطردون ، أو يُعزلون من مناصبهم ، أو يُحرمون من حق المشاركة فى توجيه وطنهم ومصير أمتهم ، وأصبحنا لا نكاد نسمع نشرة فى إذاعة الصباح إلا ونتوقع نبأ ثورة أو انقلاب يطيح بجماعة ويأتى بآخرين ، يقومون بتكميل الرواية على نفس المسرح ، رواية المادية القومية العلمانية ، ما تغير شئ إلا الأشخاص والأسماء ، وقد تتغير قليلاً طريقة التمثيل واكتساب إعجاب المتفرجين !

وأصبحنا نسمع ونقرأ الحين بعد الحين أنباء ثورة أُخمدت ، أو مؤامرة اكتُشفت صدقاً أو كذباً ، لتكون مبرراً لاضطهاد الألوف وعشرات الألوف وتسجير تنور العذاب عليهم ، وشىّ جلودهم بالسياط والحديد المحمى .

وما يكاد يمضى وقت يسير على محنة هؤلاء حتى يُعْلَن ضبط فئة أخرى ، ومؤامرة جديدة ، يُساق فيها آخرون إلى ما سيق إليه الأولون .

وهكذا دواليك ، لا تزال الرحى دائرة ، ولكنها لا تطحن الحَبّ ، بل تطحن البَشر ، وحرية البَشر ، وأمن البَشر ، وسعادة البَشر !

وسيظل العالم الإسلامى كذلك ، ما دام القائمون على حكمه يطلبون حلول

مشكلاتهم من غير هدى الإسلام ، وشريعة الإسلام .. لأنهم سيظلون فى واد وشعوبهم فى واد ، فمما لا جدال فيه أن « خامة » هذه الشعوب وأرضيتها « إسلامية » ومهما يحاول المتسلطون العلمانيون إخفاء هذه الحقيقة وطمسها بالقوة أو الدعاية ، فلن يفلحوا ، وستنتصر طبيعة الشعوب كما رأينا ذلك فى « أندونيسيا » وثورتها على يسارية « سوكارنو » وأعوانه الشيوعيين الذين بلغوا درجة من القوة يُخشى خطرها . وأحدث من ذلك ما رأيناه من ثورة الشعب والجيش السودانى على حكم الشيوعيين الذى لم يستطع أن يستمر أكثر من ثلاثة أيام . وهذا أوضح برهان على أن الإسلام فى نظرة هذه الشعوب المسلمة أقوى من كل مذهب دخيل .

وهذا ما يؤكده المراقبون الأجانب والمؤرخون الغربيون ، بالنسبة لكل بلد إسلامى كما نرى ذلك فيما كتبه « برنارد لويس » :

« حتى فى تركيا .. فى المجتمع المتغرب العلمانى المترفع .. مجتمع الجمهورية الكمالية .. قامت حركات دينية مكافحة تعارض الثورة الكمالية ، وكان على زعامتها الأخوة الدراويش ، ولم يكن فيها العلماء لأنهم كانوا موظفين رسميين ففى حياة كمال أتاتورك كانت الحركة النقشبندية رأس حربة المعارضة الدينية إذ قاد عدد غير قليل من أفرادها ثورات مسلحة وأهمها فى المنطقة الجنوبية الشرقية سنة ١٩٢٥ وفى مينمين سنة ١٩٣٠ ، أما حديثاً فالحركة التيجانية والحركة النورية هما اللتان تبشران وتدعوان لمناهضة الثورة الكمالية .. ولكنهما لم تحملا السلاح بعد ، والسنوات الأخيرة توحى بأن المنظمات الدينية هى فى طريق الزوال ، فلقد مُنعت فى بلاد كثيرة وضُغِط عليها فى بلاد أخرى . ومن غير المشكوك فيه أن هذه المنظمات لا تزال قائمة تعمل فى الخفاء ، وأنها تلقى صدى مستحباً عند غالبية الجماهير الشعبية من الطبقات الكادحة فى المجتمعات الإسلامية حتى إن الحكومات - برغم علمانيتها - تجد نفسها ملزمة - لمصلحتها - بتقدير المشاعر والولاءات

الإسلامية فمسايرة الرجعية التركية من قِبَل عدنان مندريس وإقامة المؤتمر الإسلامى فى الجمهورية العربية المتحدة هما مثلان على ذلك » [1] .

أجل فرغم المؤامرات الضخمة على خنق التيار الإسلامى فى تركيا ، فقد أصبح اليوم أقوى التيارات الشعبية المؤثرة هناك ، فهو يستمد قوته من العقيدة الإسلامية الخالدة ، ومن إيمان الشعب التركى المسلم بهذه العقيدة ، ولا زال هذا التيار يصارع - بقوته الذاتية - الدعوات الدخيلة التى تحملها الماركسية والماسونية والعلمانية ، التى تساندها من الخارج الصهيونية العالمية والشيوعية الدولية ، والصليبية الاستعمارية .

ولا زالت أنباء هذا الصراع تتوالى وتترى ، ولا زالت ضحاياه تسقط بين حين وآخر ، ولا ندرى ماذا يخبئه الغد لهذا الشعب الذى يريد العودة إلى شريعته ورسالته ومواريثه ويريد المضللون والمشبوهون أن يقاوموا إرادته ، ويثنوا عنانه ؟

والذى يحدث فى تركيا يحدث مثله فى بلاد كثيرة ، ولشعوبٍ إسلامية شتَّى من عرب وعجم .

والسبب واحد والنتيجة واحدة .

السبب هو محاولة فئة قليلة مؤيدة من القوى الخارجية السيطرة على الحكم وتوجيه المجتمع وجهة غير إسلامية ، والسير به فى طريق العلمانية ، يمينية أو يسارية .

والنتيجة : هى مقاومة الشعب لهذا الحكم ، فإن لم يستطع المقاومة العلنية فهى الكراهية والحقد والنفور ، والفجوة الواسعة التى تفصل بين الشعب والحكم والصراع الذى لا يثمر إلا ضعف الفريقين ، وتمزيق قوى الشعب كله ، لمصلحة الأعداء المتربصين الحاقدين الطامعين .

ولا سبيل إلى الاستقرار - السياسى والاجتماعى والفكرى والنفسى - فى

---

(١) الغرب والشرق الأوسط - للأستاذ برنارد لويس - ص ١٧٧

بلد ما ، إلا إذا استمدت الأمة من مواريثها العريقة العميقة ، ما تقيم عليه بناء حياتها الجديدة ، فيصل حاضرها بماضيها ، ولا يفصلها عن جذورها وفِطرتها وخاصة إذا كانت مواريث هذه الأمة متميزة بسموها وكمالها وشمولها وتوازنها لأن أصولها ليست من ابتكار البَشر ، بل من وحى اللّه اللطيف الخبير ، الذى لا يضل ولا ينسى .

فإن أبت أمة - أو بعبارة أدق : أبى قادتها وساستها وموجهو زمامها - إلا أن تنسلخ من أصولها ، وتنقلع من جذورها ، وتتعرى من مواريثها ، فإنها صائره - حتماً - إلى بلبلة لا تستقر ، واضطراب لا ينتهى .

يقول الأديب الباحث المعروف الأستاذ محمد فريد أبو حديد فى محاضرة له عن « مواريثنا الثقافية » ألقاها بقاعة المحاضرات بالأزهر :

« قد سبق أن بينّا فى ثنايا هذا الحديث ، ما ينطوى عليه مبدأ « نبذ المواريث » من مغالطة فى المنطق ..

فلننظر الآن إلى ما ينطوى عليه هذا المبدأ من الخطر الفعلى فى الناحية التطبيقية ..

من المعلوم أن جماهير الشعوب تميل دائماً إلى المحافظة على اتجاهها ، ما لم توجد عوامل قوية تعمل على تغيير هذا الاتجاه .

فقانون القصور الذاتى الذى ينطبق عليها كما ينطبق على كل شىء فى الوجود . الساكن يبقى ساكناً ما لم يحركه محرك ، والمتحرك يحتفظ باتجاهه ما لم تصدمه قوة مخالفة لاتجاهه ، فيغيِّر وجهته ، أو يفقد حركته .

وقد تقدم أن العدول عن المواريث الثقافية إنما هو هدم وإزالة يقتضيان بذل مجهود ضخم لإفناء قوتها وتغيير اتجاهها .

ومعنى هذا أن محاولة القضاء على مواريثنا يتطلب بذل جهود النهضة فى عملية الهدم ، وهذا يؤدى إلى إضاعة الجهود فى محاولة سلبية نتيجتها الهدم وحده ..

ويعقب هذا - لو فرضنا إمكانه - مرحلة ذبذبة وبلبلة ، يفقد فيها المجتمع إيمانه بمقدساته ، ويفقد فيها مقاييسه جميعاً .

ثم هو لم يصل إلى إقامة هيكل جديد يحل محل تلك المقدسات ، فماذا ينشأ عن هذا سوى الفوضى فى كل شئ ؟

انفراط العقد ، وزوال الرابطة التى كانت تربط الأفراد ، وتحدد علاقاتهم فيما بينهم ، أو بينهم وبين المجتمع الشامل الذى يعيشون فيه .

فلا يكون لتلك الحال من علاج سوى وجود قوة مسيطرة من فرد واحد أو مجموعة أفراد تسلب حريات الآخرين وتفرض سلطانها على الجميع ، للمحافظة على كيان هذا المجتمع المفتعل .

وليست الأمثلة بعيدة عنا ؛ فإن بعض الدول الإسلامية تعرضت لمثل هذا الخطر، وما تزال تعانى منه أكبر الأحزان .

فسلامة النهضات لا تكون بهدم المواريث الثقافية التى حفظت كيان الأمة فى العصور الماضية ، بل تكون بإعادة تطبيق تلك المواريث بحيث تلائم ظروف الحياة الجديدة ، وهى هى فى جوهرها صافية .

ثم إن التاريخ يدلنا على أن الأمم التى تقاسى مثل هذه المحن لا تصل إلى نتيجة إيجابية من وراء نهضاتها ، بل لا تلبث أن تتبين خطأها وتعود لتلتمس النهضة من المواريث التى نبذتها ، ولكن ذلك يكون بعد فوات الأوان . لأن النهضة تكون قد استهلكت نفسها فى وجود الهدم ، ووجود السيطرة التى يجرها الهدم من ورائه » أ . هـ .

وهذا كلام واضح كالشمس . وأوضح وأقرب مثل لذلك هو « تركيا » التى كانت أقوى وأعظم دولة فى الشرق ، ماذا ربحت من وراء الجمهورية الكمالية العلمانية ، وارتمائها فى أحضان الحضارة الغربية ، وتمرغها على عتبة الفكر الغربى ، وضربها عُرض الحائط بالثقافة الإسلامية والشريعة الإسلامية ؟

إنها لم تحقق - خلال نصف قرن - تقدماً اقتصادياً ولا تكنولوچياً يُذكر .. ولم تزل - من الناحية العسكرية والسياسية - ذيلاً مهيناً للمعسكر الغربى .

* * *

٦ - حفظ وحدة الأمة والإخاء بين أبنائها

إن هذا الحل هو الذى يحفظ على كل بلد إسلامى وحدة طبقاته وتعاونها ، ويوثق عرى الأخوة فيما بينها ، ويحيى روح الحب فيما بين أفراده وجماعاته .. ويجنبها التسلط والبغى والعلو فى الأرض الذى يصحب الرأسمالية ، وتنقسم به الأمة إلى مُلاّك وأُجراء ، وطاعمين ومحرومين ، أو كما قال الكاتب الساخر « برنارد شو » : « أناس يبحثون عن طعام لمعداتهم ، وآخرين يبحثون عن معدات لطعامهم » .

كما يجنبها حرب الطبقات وإثارة الأحقاد ، ودموية الصراع الذى تقوم عليه الاشتراكية الماركسية ، وتنادى به سبيلاً فذاً للخلاص ، وأمراً لا مفر منه ، وبذلك ينقسم الوطن الواحد ، بل البلدة الواحدة ، بل الأسرة الواحدة ، إلى أعداء متنازعين يكره بعضهم بعضاً ، ويحارب بعضهم بعضاً .

وإذا كان الصراع والعداء بين الناس حتمية تاريخية فى الاشتراكية الماركسية كان من الضرورى - عند دعاتها - أن يؤججوا نيرانه ، ويهيئوا له الحطب والفحم والبترول : بإثارة الكراهية والحسد وإيغار الصدور والتحريش بين الناس ، تمهيداً للثورة البلشفية التى تريق الدماء وتنتهك الحرمات ، وتدق الأعناق وتقتلع كل شىء من الجذور .

يقول « ماركس » منكراً على مدّعى الإخاء بين الناس والدعاة إليه :

« لم يكن الناس إخوة فى حال من الأحوال ، بل أعداء طبقيين يتصارعون » .

ويقول « زينوفييف » أحد الشُرّاح البارزين للعقيدة الشيوعية : « إن صرخة الغضب المشحونة بالحقد هى لذتنا ومتعتنا » .

ويقول « لينين » فى كتاب وجّهه إلى « مكسيم چوركى » : « إنه لا بأس بقتل ثلاثة أرباع العالم ليصير الربع الباقى شيوعياً » .

ومَن قرأ ما صنعه الشيوعيون أنفسهم بعضهم ببعض من اضطهاد وتنكيل وتشريد وتعذيب وتقتيل ، بالألوف وعشرات الألوف ومئات الألوف ، يرى العجب العجاب .

أما الإسلام فينكر كل الإنكار حتمية الصراع بين الطبقات ، ويعلن الأخوة مبدأ ، وينادى بها فريضة ترتقى إلى درجة العقيدة ، الأخوة بين المؤمنين أولاً وبين الناس كلهم ثانياً . يقول اللّه تعالى فى كتابه : ﴿ إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) ، ويقول مخاطباً الناس جميعاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ ﴾ (٢) ..

ويعلن الرسول ﷺ الأخوة بين البَشر مع أركان العقيدة الإسلامية الصحيحة فكان يقول فى دبر صلاته : « اللّهم ربنا ورب كل شىء ومليكه أنا أشهد أنك اللّه وحدك لا شريك لك ، اللّهم ربنا ورب كل شىء ومليكه أنا أشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، اللّهم ربنا ورب كل شىء ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة » (٣) .

وإذا كان « ماركس » - تبعاً لفلسفته الخبيثة فى تقسيم البَشر إلى طبقات متعادية - يوجه نداءه فى ختام البيان الشيوعى المشهور إلى العمال وحدهم قائلاً : « يا عمال العالم اتحدوا » أى ضد الطبقات الأخرى فى المجتمع ، فإن محمداً ﷺ يوجه نداءه إلى البَشر كافة عمالاً وتجاراً وملاكاً وحكاماً ومحكومين ، فيقول : « لا تدابروا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد اللّه إخواناً » (٤) .

وإذا كان « ماركس » يرى إشاعة الحقد والعداوة والبغضاء بين العمال وبين

---

(١) الحجرات : ١٠ (٢) الحجرات : ١٣

(٣) رواه أحمد فى حديث زيد بن أرقم . (٤) متفق عليه .

سائر الطبقات ، ويعد ذلك فضيلة بل فريضة ، فإن الإسلام يُحرِّم أشد التحريم إثارة العداوة والبغضاء بين الأفراد والطبقات ، ويعد ذلك من أرذل الرذائل وأكبر الكبائر ، التى يروِّج لها إبليس وجنوده ، لتأكل فضائل الناس وحسناتهم ، كما تأكل النار الحطب ، وينذر بخطرها الداهم على الأفراد والأمم ، ويعتبرها داءً وبيلاً مويقاً .

يقول الرسول ﷺ فى ذلك : « دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء . والبغضاء هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشَعر ولكن تحلق الدين » ، ويقول موصياً أُمته فى حجة الوداع : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم وجوه بعض » .

وإذا كان الإسلام يُحرِّم كل التحريم إثارة الحقد والبغضاء والصراع بين الناس ، فإنه يوجب آكد الإيجاب التدخل بكل طاقة ممكنة ، لوقف الخصومة وطرد شيطان العداوة ، وزرع الحب بدل البغض ، وإحلال الوئام محل الخصام والسلام محل النزاع . يقول القرآن الكريم : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ ﴾ (١) .. ويقول : ﴿ لاَ خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَو مَعْرُوفٍ أَوْ إِصلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (٢) .. ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٣) ..

ويقول الرسول ﷺ : « ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : إصلاح ذات البَيْن ، فإن فساد ذات البَيْن هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » .

بل نجد القرآن يطالب جماعة المؤمنين بالتدخل للإصلاح بين المتخاصمين ولو باستعمال القوة ، وأن يعملوا على وقف النزاع ، وإنهاء الصراع ، وسيادة التفاهم ، وتحكيم العدل ، فيقول : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ، فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُواْ الَّتِى تَبْغِى

---

(١) الأنفال : ١ (٢) النساء : ١١٤ (٣) الحجرات : ١

حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُواْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (١) ..

وتجعل الشريعة الإسلامية سهماً فى مصارف الزكاة لذوى الضمائر الحية والقلوب الكبيرة الذين يقدِّمون من أموالهم الخاصة للإصلاح بين الأفراد والجماعات ، فيُعَانون من مال الزكاة على سداد ما غرموا ، تشجيعاً لهم ولغيرهم على المضى دائماً فى سبيل الإصلاح بين الناس .

ومن هنا نجد اختلافاً جوهرياً بين الفلسفتين : فلسفة اليهودى « ماركس » القائمة على حتمية الصراع الطبقى ، وضرورة العداوة فيما بين الناس ، ووجوب الاستعانة بهذا الصراع وتقويته ، لتحقيق الحلم المنشود .

وفلسفة الإسلام القائمة على فرضية الإخاء ، ووجوب تقويته وتوسيع نطاقه وتوثيق عراه ، وتحريم التعادى والتباغض وفساد ذات البَيْن ، وسد كل باب يؤدى إليه ، ووجوب الإصلاح بين الناس (٢) .

وإذا كان هذا الحل هو الذى تتلقاه طبقات الأمة كلها بالرضا والارتياح والقبول فلا غرو أن يكون هو الحل الذى تضحى الأمة من أجله راضية ، وتبذل فى سبيله راغبة ، وتدافع عنه بالدم والمال مقتنعة ، وتقاوم كل مَنْ يعاديه مستبسلة ، وتصبر على الشظف والتقشف لإنجاحه مغتبطة .

وذلك أنها تعتقد أنها تبذل لدينها ، وتضحى لعقيدتها ، تبتغى وجه ربها وتجاهد فى سبيله ، والأمة تصبر على الحرمان والحصار إذا كان ذلك فى سبيل اللّه . أما إذا كان ذلك من أجل ملك أو رئيس يدعم سلطانه ، ويقوى مركز حكومته ، أو من أجل مبدأ مستورد من الشرق أو الغرب ، فإن الناس سرعان

---

(١) الحجرات : ٩ - ١٠ .

(٢) انظر بحث « الإسلام والصراع الطبقى » - للدكتور معروف الدواليبى .

ما يتضجرون ويسخطون إذا شعروا بشىء من الغلاء أو أزمة التموين أو نحو ذلك ، نتيجة حصار اقتصادى ، أو تدهور مالى ، أو ضعف إنتاجى ، ويشتد الضيق والتذمر وتعلو موجات السخط والاستنكار إذا اضطرت الدولة إلى حرب بينها وبين خصومها ، تلتهم المال كما تلتهم الرجال ، فما أسرع ما يقول الناس : فيم نُساق إلى حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ؟

نعم .. إن أجهزة الدعاية والإعلام تعمل ليل نهار ، بشتّى الأساليب ، مجندة كل الطاقات البَشرية والمادية ، مستخدمة أحدث الوسائل الفنية والعلمية ، لإقناع الأمة بالحلول الدخيلة المستوردة ، عسى أن تستقر فى عقلها ، وتنفذ إلى أعماق وجدانها ، ولكن هيهات هيهات لما يبتغون . إنهم يضيعون هذه الجهود سدى ، وينفقونها بلا ثمرة ، إلا إرهاق مالية الدولة بعشرات الملايين التى تُنفق فى كل عام على هذه الدعاية الفارغة ، التى لا تزيد الشعوب إلا تذمراً وغضباً ، وهى أشد ما تكون حاجة إلى الدينار والدرهم ، ليُنفق على الجائعين والعراة ، والمرضى والعاطلين والأميين .

وحقاً إن السلطات الحاكمة ، ستُسْكِت بالعنف كل صوت حرّ ، وتكسر كل قلم حر ، وتحطم كل قوة معارضة ، وتسخِّر أجهزة الدولة - حتى جيشها المُعَد لأعدائها - لتقوم بتصفية المناوئين ، وتجرب فيهم عمليات « غسيل المخ » المستورَدة من بلاد الاشتراكية الأم . ولكن هذه المحاولات الدموية لا تجدى فتيلاً ، ولا تزيد الشعب إلا نقمة ، ولا المعارضة إلا شدة ، ولا الحكومة إلا فشلاً ، وستزيد مسافة الخلف بين الأمة والسُلطة ، فهيهات أن تحصل يوماً على رضاها أو تحلم بالتعبير عن إرادتها .

هى الشمس مسكنها فى السما ... فعزَّ الفؤاد عزاءً جميـــلا !

فلن تستطيع إليـــها الصعـــود ... ولن تستطيع إليك النزولا !

* * *

٧ - جمع كلمة الأمة العربية الإسلامية

والحل الإسلامى هو الذى يمكن أن تجتمع عليه الأمة العربية والإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، فى آسيا وإفريقيا ، وهو القادر وحده على إنشاء الكتلة العالمية الثالثة التى تحفظ التوازن بين الروح والمادة ، بين الدين والدنيا ، بين الفرد والمجتمع ، بين الشرق والغرب ، ويبرز للبَشرية أمة وسطاً ، ومذهباً وسطاً .

إن الأخذ بالحلول الأخرى المستورَدة سيمزق الأمة الإسلامية ، ويفرقها بدداً ، ويحول بينها وبين الوحدة المنشودة التى فرضها اللّه عليها . إن بعض الأمة عندئذ سيتجه إلى اليمين الليبرالى ، وبعضها سيتجه إلى اليسار الماركسى . واليمين نفسه مراتب ودرجات ، واليسار كذلك مراتب ودرجات ، تختلف وتتنوع وتتقارب وتتباعد ، من يمين اليمين ، إلى يسار اليسار . كما أن القِبْلة ليست واحدة ، لا عند هؤلاء ولا عند هؤلاء . فمن ناحية تجد قوماً يولون وجوههم شطر لندن وآخرين شطر واشنطن ، وغيرهم شطر باريس .. ومن ناحية أخرى تجد بين اليساريين « الحُمر » الذين اتخذوا كعبتهم موسكو ، و « الصُفر » الذين اتخذوها بكين !

وهكذا تتعدد ألوان التبعية ، وأنواع الولاء . ومع هذه الألوان والأنواع يتنوع الصراع ويتعدد الانقسام ، ويتوالى الانشقاق .

وعاقبة ذلك كله ، تفريق الأمة الواحدة الكبيرة إلى أمم صغيرة متنازعة وتمزيق الدولة الواحدة إلى دويلات ، وإن شئت فقُلْ : إلى لقيمات يسهل ابتلاعها وازدرادها .

وهذا الخلاف والتفرق والانقسام نتيجة حتمية لاختلاف المناهج والسُبل وتبعاً للابتعاد عن منهج اللّه وهداه وهذا ما حذّر منه كتاب الإسلام ورسول الإسلام .

قال ابن مسعود رضى اللّه عنه : خَطَّ رسول اللّه ﷺ خطاً بيده . ثم قال :

« هذا سبيل اللّه مستقيماً » وخطَّ عن يمينه وشماله ثم قال : « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » [١] ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [٢] ..

فهذه السُبل الشيطانية - يمينية كانت أو يسارية - لا بد أن تُفرِّق كلمة الأمة ، وتمزِّق شملها ، ومعنى ذلك هو الهلاك والبوار ، الذى لا ينجى منه إلا الرجوع إلى المحجة البيضاء التى تركنا عليها رسول اللّه ﷺ ، فعن العرباض بن سارية رضى اللّه عنه أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك » [٣] .

وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : « إنه مَن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بُسنَّتى وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضواً عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » [٤] .

ففى ظل الإسلام وحده يمكن أن تذوب العصبيات القومية والإقليمية وتذوب الفوارق اللونية واللغوية والطبقية ، ويجتمع هؤلاء المئات من الملايين من المسلمين على نظام واحد ، كما اجتمعوا على عقيدة واحدة ، وكما يتجهون جميعاً فى كل يوم خمس مرات إلى قِبْلة واحدة ، وكما يجتمع مئات الألوف منهم كل عام فى مكان واحد وزمان واحد ، لأداء فريضة واحدة ، هى فريضة الحج إلى بيت اللّه الحرام ، وقد لاحظ كثير من الأجانب قوة الترابط الفكرى والعاطفى بين المسلمين ، ومدى الاستفادة منه فى مواجهة التطور الاقتصادى والتقدم الاجتماعى .

يقول « چاك أوستروى » فى كتابه عن « الإسلام والتنمية الاقتصادية » :

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده فى ابن كثير . (٢) الأنعام : ١٥٣

(٣) قال فى الترغيب : رواه ابن أبى عاصم فى كتاب السُنَّة بإسناد حسن .

(٤) الحديث رواه ابن ماجه فى سننه - مقدمة ٦ ، ٧

« هناك حوالى ٤٠٠ مليون [١] مسلم ، وإذا ذكر أن واحداً من كل أربعة رجال فى العالم هو صينى ، كذلك فبإمكاننا القول إن فى العالم الحاضر مسلماً واحداً فى كل ستة رجال .

« هذه الكتلة التى تجتمع فى صلاة واحدة بدأت تعى مدى قوتها والتحامها الذى لفت منذ زمن طويل أنظار كل زائر .

« خمس مرات فى اليوم ، فى جميع أنحاء العالم ، أربعمائة مليون إنسان يخرون ساجدين قِبْلتهم مكة ، يشكِّلون دائرة واسعة كوردة ، كل ورقة فيها تكوِّن كائناً حياً يركعون ويسجدون ، وأنا أتصور - لو كان بإمكان النظر أن يحدهم جميعاً - أن الصورة التى تقدمها هذه الزهرة الجبارة تتفتح ثم تغلق بترتيب نظامى مشكِّلة فى مجموعات غير محدودة من المؤمنين ، زهرة غريبة تنفتح على أكثر من قارة ، تفقد أوراقها كل ليلة لتستجمعها عند نداء المؤذن فى الفجر ، زهرة كل ورقة فيها مربوطة إلى الأخرى بوشائج الصلاة المتينة ، تتجمع كلها فى الكعبة الكثيفة السواد ، هذا الإحساس العظيم الذى يشير إليه حماس بعض الموجهين فى الشرق الأوسط يفسر - جزئياً - هذه الوجهة فى السياسة الاقتصادية ، الوجهة الرامية إلى الأهداف الجسام » [٢] .

وإن هذه الوحدة الروحية العاطفية الفكرية ، لتزداد قوة وأصالة ووضوحاً حين يكون وراءها نظام واحد ، ومنهج واحد ، يلتقى الجميع عليه ، ويتبعون هداه ، إن وحدة المنهج بعد وحدة العقيدة - هى التى تجعل الأمة كالبنيان المرصوص ، بل الجسد الواحد ، وتباعد بينها وبين أسباب الفُرقة والتنازع .

إنه ليس من الهين ولا الأمر البسيط أن يجتمع سبعمائة أو ثمانمائة مليون

---

(١) الواقع أن المسلمين فى العالم اليوم يقاربون ٨٠٠ مليون ، كما تشير إلى ذلك أحصائية حديثة من الأمم المتحدة ولكن الغربيين دائماً يحاولون تقليل عدد المسلمين !

(٢) ترجمة الدكتور نبيل الطويل .

على نظام واحد يخضعون لقوانينه ووصاياه ، ويقدسون أوامره ونواهيه ، لأنها من عند الله .

إن مجرد خطور هذا الحلم الجميل بالبال لأمر مخوف كل الخوف ، ترتعد له فرائص الاستعمار الأسود ، والإلحاد الأحمر ، والصهيونية الرقطاء .

وكان أكبر هم الاستعمار الصليبى الذى حكم معظم الديار الإسلامية فى العصر الحديث ، أن يحول بين مثقفى الأمة وقادة التوجيه فيها . وبين التفكير فى الإسلام والعودة إلى نظامه وأحكامه ومُثُله ، وأن يصطنع سدوداً فكرية ونفسية تحجب عنهم تعاليم الإسلام الحقة وثقافته الصحيحة .

وكان من أعظم أهدافه ألا تجتمع الأمة الإسلامية على منهج واحد تعتصم به ولا تنصرف عنه ، وخاصة إذا كان هذا المنهج هو الإسلام .

وكان من أساليبها فى ذلك :

(أ) خلق الاتجاهات القومية الضيقة التى من شأنها أن تجعل من الأمة الإسلامية الواحدة أمماً وجماعات ودولاً . فهذه قومية طورانية تركية ، وثانية فينيقية سورية ، وثالثة فرعونية مصرية ، ورابعة آشورية عراقية ، وخامسة قومية عربية ، وسادسة بربرية ، وسابعة إيرانية .. وهلم جراً .

(ب) إثارة النعرات الوطنية الإقليمية . فآسيا للآسيويين ، وإفريقيا للإفريقيين ، ثم سوريا للسوريين ، ومصر للمصريين ، والسودان للسودانيين ، ولبنان للبنانيين .. وهكذا .

(جـ) خلق المدارس الفكرية المتناحرة فى الأدب والفلسفة والتربية والسياسة وسائر مجالات الفكر والثقافة ، فهنا صراع بين القديم والحديث فى الأدب ، وبين المدرسة السكسونية والمدرسة اللاتينية فى الثقافة ، وبين الماديين والمثاليين فى الفلسفة ، وبين اليمين واليسار فى الاقتصاد والاجتماع ، وبين المحافظين والأحرار فى السياسة ، إلى غير ذلك من ألوان الخلاف والصراع .

(د) توسيع الهوة بين الثقافة الدينية القديمة التى كانت أساس الثقافة القومية الأصيلة ، وبين الثقافة الحديثة التى اتسعت لكل معارف العصر وآدابه وفنونه والعمل بكل وسيلة على عزل القديم عن الحياة ، وإبقائه معصوب العينين عما يدور فى الدنيا الجديدة ، وإظهاره بمظهر المتخلف المتحجر الذى يقاوم النور وحركة التاريخ .

ومن جهة أخرى يعمل على تعميم ثقافته الجديدة ، وترسيخها فى العقول ، وتحبيبها إلى الأنفس ، وهى ثقافة تحمل فى طياتها احتقار كل قديم ، وتمجيد كل جديد ، والشك فى « الغيبيات » ، وتشيع فى أنحائها بوجه عام النظرة القومية والعلمانية والمادية .

* * *

٨ - تجديد روح الحياة والقوة فى الأمة

إن الحل الإسلامى هو الحل الوحيد الذى يجدد فى الأمة ما بُلى من شبابها ، ويحيى ما شاخ من عزائمها ، ويحرك ما همد من طاقاتها الخلاّقة ، وينفخ فيها روح الحياة ، ويجرى فى عروقها دم البطولة ، ويصب فى كيانها كله روح القوة وقوة الروح .

ذلك أن هذه الأمة أمة مؤمنة بفطرتها وبتجاربها وبتاريخها .. والإيمان هو أول ملامحها ، وأبرز المعالم فى حضارتها ، وهو صانع أمجادها وصاحب الفضل الأول فى تاريخها ، وقائدها فى معاركها الكبرى إلى النصر ، به فتحت البلاد وسادت العباد ، وحطمت مُلْك كسرى ، وقصّت أجنحة قيصر ، وبه شرّقت وغرّبت فأخرجت الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الخالق ، ومن ضيق العيش إلى سعة الحياة ، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام .

بهذا الإيمان انتصرت فى حطين .. وعين جالوت .. والمنصورة ، وانتصرت على جيوش التتار وحملات الصليبيين ، وبه صمدت فى هذا العصر أمام الغزو

الاستعمارى الصليبى ، حتى كان آخر نصرها فى الجزائر بعد قرن وثلث من الاحتلال ومحاولة التغريب والتنصير .

إن لكل أمة شخصية متميزة ، ولكل شخصية مفتاحاً خاصاً تستطيع به أن تدفعها بلمسة منه إلى الأمام ما شاء الله ، كما يصنع مفتاح السيارة الذى لا تندفع بغيره ، ولا تتحرك إلا به .

ومفتاح شخصية هذه الأمة هو الإيمان ، به تُصنع المعجزات ، وتتخطَّى المستحيلات ، وتستهين بالعقبات والمعوقات .

فإذا أرادت أمتنا فى طريق تحريرها ووحدتها وبناء نهضتها : الإنسان القوى الذى يدوس الشهوة ، والمنتج الذى يحترم الوقت ، والصابر الذى يتحمل الشظف ، والسخى الذى يبذل المال ، والفدائى الذى يحلم بالموت ، فلن يصنع ذلك كله إلا الإيمان ، إيمان الإسلام .

ذكرنا فى كتابنا « درس النكبة الثانية » ما قاله المؤرخ والفيلسوف الاجتماعى الفرنسى « چوستاف لوبون » عن طبيعة هذه الأمة وتأثير الدين فيها ، ولا بأس أن نعيد هذه الكلمات تبصرة وتذكرة . يقول :

« تأثير دين محمد فى النفوس أعظم من تأثير أى دين آخر ، ولا تزال العروق المختلفة التى اتخذت القرآن مرشداً لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً ، أجل .. قد تجد بين المسلمين عدداً قليلاً من الزنادقة والأخلياء ولكنك لن ترى مَنْ يجرؤ منهم على انتهاك حُرمة الإسلام فى عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية كالصلاة فى المساجد وصوم رمضان الذى يراعى جميع المسلمين أحكامه بدقة مع ما فى هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها فى صوم الأربعين الذى يقوم به النصارى كما شاهدت ذلك فى جميع الأقطار الإسلامية التى زرتها فى آسيا وإفريقيا. ومن ذلك : أتيح لى أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مقرنين فى الأصفاد ، ومتهمين بأنواع الجرائم ، فقضيت العجب حين رأيتهم - وهم الذين خرقوا حرمة جميع القوانين

الاجتماعية مستخفين بأقصى العقوبات - لم يجرؤوا على انتهاك تعاليم النبى ، حين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله القهار ويعبدونه .

« وعلى مَن يرغب فى فهم حقيقة أمم الشرق - التى لم يدرك الأوروبيون أمرها إلا قليلاً - أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها . وللدين - ذى التأثير الضئيل فينا - نفوذ عظيم فيهم ، وبالدين يؤثر فى نفوسهم ، ولولا الدين ما حرك ساكن المصريين ، منذ الثورة التى ضرجت مصر بالدماء » (يعنى ثورة ١٩١٩) .

إلى أن يقول :

« إن الرجل الذى يخاطب العرب باسم الله يُطاع لا محالة ، ما علموا أنه يتكلم باسم الله حقاً .

فعلى الراصد المؤمن أو الملحد أن يحترم هذا الإيمان العميق ، الذى استطاع العرب أن يفتحوا العالَم به فيما مضى ، وهم اليوم يصبرون به على قسوة المصير » [١] .

تلك هى طبيعة هذه الأمة ، وذلك هو تأثير الإسلام فى أبنائها : العرب وغيرهم من « العروق المختلفة التى اتخذت القرآن مرشداً لها » .

والمؤرخون قديماً وحديثاً متفقون على هذا الرأى .

يقول الأستاذ : « كليرنج » فى كتابه عن « الشرق الأدنى .. مجتمعه وثقافته » :

« إن الدين مرآة تنطبع عليها القيم الروحية والثقافية للشعوب بأجلى صورها وهو للجماعة كالحدقة من العين . ترتسم عليها صور الحقائق التى توليها الاهتمام » .

---

(١) من كتاب « حضارة العرب » لجوستاف لوبون - تعريب عادل زعيتر ص ٤١٧

أما الأستاذ « أليسون » فيؤكد استناداً إلى وقائع التاريخ ذاته بأن الاستقرار لدى الآسيويين - على الأخص - فى حاجة دائماً إلى الاستناد إلى الدين .

وهذا موافق لما ذهب إليه « ابن خلدون » فى شأن العرب والترك وغيرهم من شعوب الشرق من حيث قوة تأثير الدين فيهم ، حيث يصبح الوازع لهم من أنفسهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة ، الوازع عن التحاسد والتنافس [١] .

فمَن أراد أن يصنع بهذه الأمة العجائب ، ويقتحم بها المخاطر ، ويخوض بها لجج المعارك ، ويعيد بها أيام خالد وصلاح الدين ، فليخاطبها باسم الله ، وليقدها بزمام الإيمان ، وليجمعها تحت راية القرآن وكلمة التوحيد ، وقيادة معلّمها الأول محمد عليه الصلاة والسلام . وليربطها بأيام الإسلام ، وتراث الإسلام ، وأبطال الإسلام .

بهذا تكشف الأمة عن خصائصها وأصالة معدنها ، ويتجلى ما تنطوى عليه أعماقها من إيمان غطّاه طلاء الحضارة الزائف ، ومن فضائل ران عليها الصدأ بفعل المذاهب الدخيلة والأنظمة العميلة ، التى أضلّتها عن طريقها ، وتركتها فى حيرة وفراغ .

إن أمتنا التى تواجه اليوم الصهيونية العالمية العاتية الطامعة ، ومن ورائها قوى الإمبريالية الغربية والشرقية ، التى ساندتها فى إقامة دولتها « إسرائيل » لهى أحوج ما تكون إلى استثارة دفائنها المكنونة ، وطاقاتها المذخورة ، واستخراج أقصى ما تملكه من الإمكانات النفسية ، لتواجه بها أعداءها ، ولن يثيرها ويدفعها ويحركها إلا كلمة الإيمان ونداء الإسلام .

إن مؤلفات فرويد ، ودوركايم ، وچون ديوى ، أو مؤلفات ماركس ولينين وماو - لا تهز وتراً فى قلب أمتنا ، ولا ينبض بها عِرق فى كياننا ، ولن يدع بها

---

(١) مقدمة ابن خلدون - الكتاب الأول - الفصل : ٢١ - ٢٧

أنانى أنانيته ، ولا كسلان كسله ، ولا ماجن مجونه ، ولن تحرك جندياً لإقدام ، ولن تقود جيشاً إلى نصر ، ولكن كلمة « اللّه أكبر » أو « لا إله إلا اللّه ، محمد رسول اللّه » أو « هَبِّى يا رياح الجنة » تفعل فى الأنفس فعل السحر ، وتؤثر فى القلوب تأثير الكهرباء ، وتقلب ميزان القوى فى المعارك الكبرى .

إن صيحة « والإسلاماه » كانت وراء النصر فى « عين جالوت » . وكلمة « اللّه أكبر » فى العاشر من رمضان ، والتى اتخذها الجيش المصرى شعاراً له ، كانت وراء ما حققنا من العبور الخاطف ، وتحطيم خط بارليف ، وهزيمة الجيش الذى زعم - لفترة طويلة - أنه القوة التى لا تُقهر . وستظل كلمة الإسلام سر النصر فى كل معركة حاسمة بين المسلمين وأعداء الإسلام .

إن العودة إلى الإسلام هى ماء الحياة ، الذى يرد على الأمة روحها ، ويُجرى فى أوصالها العافية والقوة ، كما أنه المصل الواقى الذى يمنحها المناعة ضد الجراثيم الفتاكة التى يبثها أعداؤها .

العودة إلى الإسلام هى التى تصلح ما فسد من هذه الأمة ، وتنشئها خلقاً آخر [1] ، وتسلمها من جديد زمام التاريخ .

وهذا فى الواقع هو ما يخشاه أعداؤها ، وما حسبوا - ويحسبون له دائماً - ألف حساب وحساب .

إنهم ساعدوا - ويساعدون - على خلق التيارات العلمانية والمادية التى تعزل الأمة عن دينها ، وتفصلها عن مصدر قوتها ، ثم على تغذيتها بعد خلقها وإنشائها ، فهذه التيارات والنزعات - ليبرالية كانت أو اشتراكية - كلها من خلق الاستعمار والصهيونية ، بواسطة أو بغير واسطة .

يقول « لورنس براون » فى كتاب صدر سنة ١٩٤٤ هذه العبارات الصريحة :

« لقد كنا نُخوِّف بشعوب مختلفة ، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا

---

(١) راجع فصل « الإيمان والإصلاح » من كتابنا « الإيمان والحياة » .

الخوف .. لقد كنا نَخوِّف بالخطر اليهودى ، والخطر الأصفر (اليابان والصين) والخطر البلشفى . إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه ، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد ، ثم رأينا أن البلاشفة (الشيوعيين) حلفاء لنا ، أما الشعوب الصفراء فهناك دول ديمقراطية كبرى تقاومها .. ولكن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام ، وفى قوته على التوسع والإخضاع ، وفى حيويته ، إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى » [١] .

وهكذا يرى الكاتب أن فى نظام الإسلام قوة كامنة رغم ضعف أهله وتفرقهم ، وأن هذه القوة المذخورة لا يؤمن خطرها على الاستعمار الأوروبى ، وأنها هى التى يجب أن يُحسب حسابها فى السياسة الأوروبية ، وأن كل ما يخوِّف به المخوِّفون من أخطار أُخر ليست أخطاراً فى الحقيقة ، بما فى ذلك الخطر اليهودى والخطر الشيوعى ، والخطر الصينى ، ولكن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام .

كتب المستشرق البريطانى البروفسور « مونتجومرى وات » مقالاً فى صحيفة « التايمز » اللندنية فى ٨ مارس (آزار) قال فى نهايته [٢] :

« إذا وُجِدَ القائد المناسب الذى يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام فإنه من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسة العظمى فى العالم مرة أخرى » .

وبعدها استطرد معبراً عن قلقه ، بتأكيد قول أحد زملائه ، وهو المستشرق السير « هـ . أ . جب » فيقول :

« وكما نوَّه السير « هاملتون جب » فإن هناك احتمالاً - من الحكمة للغرب ألا يقلل من شأنه - ألا وهو ظهور الإسلام من جديد ، كقوة عالمية » .

---

(١) من كتاب « التبشير والاستعمار » للدكتور مصطفى الخالدى وعمر فروخ ص ١٨٤ - طبعة ثانية .

(٢) الترجمة من مجلة « الغرباء » اللندنية التى تصدرها جمعية الطلاَّب المسلمين فى المملكة المتحدة - عدد مايو ١٩٦٨

ولعله يشير إلى تلك الكلمة التى كتبها « جب » من قبل فى مقدمته لكتاب « إلى أين يتجه الإسلام » ؟ وكان فيها ما يشبه التنبيه والإنذار إلى العالم الغربى ليأخذ حذره ويكيد كيده ، وذلك حين قال :

« ومع أن الوحدة الإسلامية قد انتهت من الناحية القانونية الرسمية ، ومع أن الثقافات القومية قد أخذت مكانها فى المدارس ، ومع أن الفوارق الاجتماعية قد أصبحت أكثر وضوحاً ، ومع أن الثقافة الدينية التقليدية قد أصبحت محصورة فى عدد قليل محدود ، مع ذلك كله فالمعاهد الدينية نفسها لا تزال قائمة ولا يزال حفّاظ القرآن ودارسوه كما كانوا لم ينقص عددهم ، ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين . وربما كان تقديس شخصية « محمد » وما يثيره ذكره من حماس فى سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم من أهم ملامح النهضة الإسلامية الحديثة » .

ثم يقول « جب » كلمة المراقب اليقظ :

« إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة ، فهى تتفجر انفجاراً مفاجئاً ، قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوهم إلى الاسترابة فى أمرها ، فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة ، لا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين جديد » [1] .

* * *

٩ - تحقيق الأصالة والاستقلال للأمة

ومزية أخرى نضيفها للحل الإسلامى ، فهو الحل الذى يحقق لأمتنا كرامتها ، وشخصيتها ، ويبرز أصالتها واستقلالها ، بل يضعها موضع الأستاذية للأمم الأخرى ، حيث تحمل إليها حلاً جديداً لعُقَد الحياة ، ومشكلات الكون والإنسان . حلاً غير تلك الحلول اليمينية أو اليسارية التى جرفت الإنسانية إلى شفا الهاوية ،

---

(١) انظر : الاتجاهات الوطنية للدكتور م . محمد حسين ص ٢ و ص ٢٠٦

وجلبت عليها الشقاء والدمار والقلق والرعب ، فباتت فى ذعر وأصبحت فى خوف ، وأمست فى اضطراب ، ونامت فى أحلام مزعجة .

هذا الحل الذى يمزج بين الروح والمادة ، ويجمع بين الدين والدنيا ، ويوازن بين الفرد والمجتمع ، ويعدل بين الرجل والمرأة ، ويؤلف بين الغريزة والعقل ، ويسوى بين الأبيض والأسود ، ويؤاخى بين الإنسان والإنسان ، هو الحل الذى يجعل لأمتنا رسالة فوق هذه البسيطة ، رسالة تحمل أمانة تنفيذها فى خاصة مجتمعها ، وأمانة تبليغها إلى الناس كافة .

فإنها أمة لم يخلقها الله لتعلق بغيرها كالطفيليات ، ولم يخرجها الله لتنحصر فى نفسها كحيوان القواقع ، وإنما أخرجها لنفع الناس وهدايتهم ، وإقامة الحُجَّة عليهم بتنفيذ رسالة الله أولاً ، وإبلاغها إليهم ثانياً . قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .. فهى أمة لم تنبت من نفسها كالنبات البرى أو الشيطانى بل أخرجها الله تعالى ، وأخرجها لهدف هو نفع البشرية جمعاء (الناس) عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، المرتبطين بالله .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (٢) ..

إن أى حل آخر نستورده من هناك أو هنالك سيحرمنا من هذه الأستاذية للبَشرية وهذه الشهادة على الأمم ، بل سيحرمنا من الأصالة ، والاستقلال ، ويفرغ علينا معنى التبعية ، ويجعلنا أذناباً بعد أن نكون رؤوساً ، فهل يجوز هذا - ديناً أو عقلاً أو عُرْفاً - ونحن نملك أعظم حل لمشكلات الإنسانية ؟

وإذا كان تسول الأغنياء القادرين شيئاً تستبشعه الأخلاق ، وتعاقب عليه القوانين ، فكيف يسوغ لنا - قانوناً أو خُلُقاً - أن نتسول حلاً لمشكلات حياتنا

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) البقرة : ١٤٣

من عند غيرنا ، بل من عند خصومنا ، وبين أيدينا الحل الناجع من كتاب الله وهدى نبيه ، وتراثنا الفكرى والتشريعى العريض ؟ وما أصدق ما قال المتنبى :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام !

* *

١ - الحل الذى جُرِّب فى هذه الأمة فآتى أطيب الثمرات

وأخيراً ...

إن الحل الإسلامى هو الحل الذى جُرِّب فى هذه الأمة من قبل ، فأعطى نتائج باهرة ، وحقق نجاحاً منقطع النظير ، وسعدت تحت سلطانه بالطمأنينة والعدل والاستقرار ، وأطعمها الله به من جوع ، وآمنها من خوف ، وأعزها بعد ذل ، وعلّمها بعد جهل ، وهداها بعد ضلال ، واجتمعت عليه بعد فُرقة ، وتآخت فى ظله بعد عداوة وشحناء ، ومَن أنكر هذا فقد كذّب التاريخ ، ونفى الواقع ، وجحد نعمة الله ، وتنكر لآيات الله فقد مَنَّ الله فى كتابه على المؤمنين فقال : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ، وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٢) ..

وهكذا كانت الأمة العربية على شفا الهلاك والدمار في عقائدها وأخلاقها ومجتمعها ، حتى أنقذها بالإسلام وأخرجها من بين الضلال إلى الهدى ، ومن

---

(١) آل عمران : ١٦٤ (٢) آل عمران : ١٠٣

الجهل إلى العلم ، ومن العصبية إلى الأخوة . ومن الفوضى إلى النظام ، وبعبارة موجزة : من الظلام إلى النور .

يقول الإمام التابعى المفسِّر قتادة بن دعامة فى تفسير : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ :

« كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاه عيشاً ، وأبينه ضلالة ، وأعراه جلوداً ، وأجوعه بطوناً ، معكومين على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم ، لا واللّه ما فى بلادهم يومئذ من شىء يُحسدون عليه ، مَن عاش منهم عاش شقياً ، ومَن مات ردّى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، واللّه ما نعلم قبيلاً يومئذ من حاضر الأرض كانوا فيها أصغر حظاً وأدق فيها شأناً منهم حتى جاء اللّه عزّ وجلّ بالإسلام فورثكم به الكتاب ، وأحلّ لكم به دار الجهاد ، ووضع لكم به من الرزق ، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى اللّه ما رأيتم ، فاشكروا نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشاكرين ، وإن أهل الشكر فى مزيد اللّه ، فتعالى ربنا وتبارك » [1] .

إن المجتمعات الإنسانية تحاول اليوم جاهدة القضاء على الفقر ، وإغناء الفقراء عن الحاجة ، ولم تستطع أن تحقق ذلك ، لا فى مجتمعات الرأسمالية ولا الاشتراكية . أما الإسلام قد استطاع - حين أُحسن تطبيقه ، وحين استقر الوضع السياسى للمسلمين ، وتهيأ لهم حكم عادل ، وخلافة راشدة - أن يمحو الفقر المذل ، حتى يتحير صاحب الصدقة أين يضعها ، مما أظل الناس من عدل الإسلام ، وفضل الإسلام .

روى البيهقى فى « الدلائل » عن عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد

---

(١) من كتاب جامع البيان فى تفسير القرآن لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ - جـ ٤ ص ٢٥ - المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق بمصر سنة ١٣٢٤ هـ - فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا ﴾ (آل عمران : ١٠٣) .

ابن الخطاب قال : « إنما ولى عمر بن عبد العزيز ثلاثين شهراً ، لا واللّهِ ما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله ، يتذكر مَنْ يضعه فيه فلا يجده ، قد أغنى عمر الناس » [١] .

وقال يحيى بن سعيد : « بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيراً ، ولم نجد مَنْ يأخذ منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس » [٢] .

وأسبق من عهد عمر بن عبد العزيز أن بعض الأقاليم التى سعدت بحكم الإسلام وعدله فى عهد عمر بن الخطاب ، أدركت حظاً عظيماً من هذا الغنى الذى عمّت بركته أهل الأقاليم كافة ، فلم يجد معاذ بن جبل مبعوث رسول اللّه ﷺ إلى اليمن والذى أقره أبو بكر وعمر من بعده على ما كان عليه - أقول : - لم يجد معاذ باليمن بعد سنوات قليلة من حكم الإسلام بها واحداً يأخذ منه الزكاة ، مما جعله يبعث بها إلى عمر فى عاصمة الخلافة ، وحاضرة الدولة الإسلامية بالمدينة [٣] . بعد حوار ومراجعة بينه وبين أمير المؤمنين فى ذلك .

فى ظل النظام الإسلامى حققت هذه الأمة رخاءً منقطع النظير ، لا بزيادة الإنتاج فحسب ، بل بعدالة التوزيع أيضاً . فلا خير فى تدفق الغنى والثروة على أمةٍ ، إذا نعمت به طائفة أو طوائف ، وحُرِم منه آخرون .

إن أفضل أنواع العلاج هو ما جرّبه المريض ، فحسم داءه ، وعجّل شفاءه ، والأحمق من الناس هو الذى يدع الدواء المجرّب الموفور عنده ، ليبحث عن دواء جديد ، عند الأجانب عنه ، بل عند خصومه وأعداء دينه وأمته ، مع أن هذا

---

(١) انظر عمدة القارى للعينى : ١٣٥/١٦ (٢) سيرة ابن عبد الحكم .

(٣) راجع كتاب « مشكلة الفقر .. وكيف عالجها الإسلام » للمؤلف . فصل « انتصار الإسلام على الفقر » طبعة ثانية - مكتبة وهبة - القاهرة .

الدواء الذى يلتمسه لم يشف أصحابه ، ولم يهيىء لهم العافية ، ولم يزدهم إلا خبالاً .

أجل .. إن الحلول الأخرى - سواء أكانت رأسمالية أم اشتراكية - لم تجلب السعادة لأهلها ، ولم تحقق لهم رغد العيش وطيب الحياة ، ولا يزال أصحابها بين حين وآخر يُغيِّرون فيها ويُعدِّلون ، وينقضون اليوم ما أبرموه بالأمس ، وبخاصة « الاشتراكية العلمية » الماركسية التى فُتِن بها قلّة من قومنا ، وأعطوها ما يعطى المتدينون لوحى السماء من القداسة والخلود أو أكثر ، ثم لم تمض السنون حتى أصبح دعاتها أنفسهم يتراجعون عن كثير من مبادئها ، على كره منهم ، ومعارضة من متعصبيهم ، ولكن نزولاً على حكم الضرورة ، وخضوعاً لمنطق الفطرة ، وانقياداً للغة الأرقام نفسها

إن « ماركس » رفض « جنة الأديان » التى وعد الله بها المؤمنين فى دار الخلود ، أملاً فى « جنة دنيوية » تقيمها الاشتراكية الشيوعية على هذه الأرض ، ومضى ما يزيد على خمسين سنة على قيام النظام الماركسى فى روسيا ، ولم ير الناس من الجنة الموعودة شيئاً ، ولم يذوقوا فى ظل « الشيوعية » برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغسّاقاً .

لقد خسروا نعمة الحرية ، ونعمة الملْكية ، ونعمة الأمن والسكينة النفسية ، ونعمة الإيمان بالله ورسله ، ونعمة الأمل فى جنة الآخرة ، ولم يكسبوا فى مقابل ذلك ما كان يُتوقع من وفرة الإنتاج ، وعدالة التوزيع ، ورفاهية الحياة .

لقد عاشت روسيا أشْهُرَ الثورة الأولى فى شِبْهِ حلم بالدنيا الجديدة السعيدة ، وغرقت فى حماسة غريبة تقارب « الهيستريا » .

أعلن « لينين » مباشرة بعد تسلم السُلطة ، أن المجتمع الشيوعى « اللاطبقى » أصبح فى متناول اليد ، ولن يتأخر أكثر من ستة أشهر كى يتحقق ويتبلور .

أما « تروتسكى » فترك التعابير الاقتصادية العلمية جانباً ، وأخذ يتكلم بشكل تجاوز نبوءات الأنبياء حماسة - فى وصف الدنيا الجديدة المنشودة ،

فتراه يقول : « إن الكهنة فى جميع الأديان يستطيعون أن يقولوا ما يحلو لهم عن الجنة المقبلة التى يبشرون بها فى عالم آخر ، ولكننا نحن نعلن بأننا سوف نعطى الجنس البَشرى جنة هنا على هذه الأرض ، لذا يجب ألا ننسى دقيقة واحدة ، المثال الذى نضعه لأنفسنا . إنه أسمى قصد تطلعت إليه الإنسانية فى تاريخها ، وهو يعبِّر عن أشرف وأجمل ما يوجد فى جميع العقائد الفائتة » !

ومما قاله « تروتسكى » فى وصف المجتمع الجديد : « إن الإنسان سيصبح فيه - سريعاً - أقوى وأذكى وأكثر حساسية عما كان . وإن الجسم سينمو بانسجام أكبر ، وإن الصوت ذاته سيصبح أكثر جمالاً ، وإن الإنسان العادى نفسه سيرتفع إلى مستوى « أرسطو » أو « جوته » !

ولكن هذه الأحلام اللذيذة سرعان ما تبددت ، وواجه الناس ظلام الواقع وظلمه ، وداهمتهم المجاعات المتعاقبة ، والأزمات المتوالية ، وليت الأمر اقتصر على أزمة الغذاء والكساء ، وجوع البطون ، وعرى الأجساد ، ولكن تبع ذلك حملات « التطهير » وحمامات الدم ، وكبت الحريات ، وتكميم الأفواه ، وراح ضحية ذلك ألوف وملايين ، منهم « تروتسكى » نفسه !!! وبذلك أصيبوا بشر مصيبتين يصيبان البَشر فى دنياهم ، وهما : الجوع والخوف : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [1] ..

ولقد صدم هذا الواقع المرّ بعض الأدباء والمفكرين الذين آمنوا يوماً ما بالشيوعية وقدرتها على حلّ مشكلات البَشر ، وتفادى ما ولدته الرأسمالية من شرور وويلات وانحرافات ، فلما رأوا بأعينهم حصاد المذهب الجديد ، وما حفل به من آثام وأضرار ومنكرات ، يندى لها جبين الإنسان ، وتقشعر من هولها الأبدان ، رجعوا يترحمون على الرأسمالية وأيامها [2] مرددين ما قال الشاعر :

---

(١) النحل : ١١٢

(٢) اقرأ على سبيل المثال : كتاب « الصنم الذى هوى » ترجمة فؤاد حمودة . وهو مجموعة مقالات لستة من كبار كتّاب الغرب آمنوا بالشيوعية أول الأمر ، ثم كفروا بها حين تبين لهم واقعها المر الأليم .

رُبَّ يوم بكيتُ منه فلما صرتُ فى غيره بكيتُ عليه !

والعجيب أن الناس فى النظام الرأسمالى الديمقراطى يستطعيون أن يُروِّحوا عن أنفسهم بالاحتجاج والاستنكار ، أو بالتأوه والصراخ على الأقل ، ولكنهم تحت وطأة النظام الماركسى لا يُباح لهم أن يتأوهوا أو يشكوا ، فضلاً عن أن يحتجوا أو يقولوا : « لِمَ » ؟ و « كيف » ؟ فما بالك بـ « لا » ؟!

وقد أراد الشعب المجري يوماً أن يجرب قول « لا » وقالها فعلاً ، فردت عليه الدبابات الروسية تدك دياره دكاً ، وتطحنه طحناً !! وبعدها تجربة الشعب التشيكى .. وما تجربة بولندا - منا - ببعيد !!

إن قول « آه » قد يخفف ألم المريض ، وإن صراخ المظلوم فى وجه ظالمه ، إن لم يشف صدره ، قد ينقع بعض غُلّته ، ولا عجب أن حرّم اللّه الجهر بالسوء من القول إلا من المظلوم ينتفض فى وجه ظالمه ثائراً شاكياً : ﴿ لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلاَّ مَن ظُلِمَ ، وكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴾[1] ..

لقد ذاق الغرب الويل على يدى الرأسمالية الفاجرة ، والماركسية الكافرة ، ومن المحال أن تفشل هذه المذاهب والأنظمة فى بلادها ، وتفلح عندنا نحن ، وهى غريبة عنا كل الغُربة : عن ديننا وقِيَمنا وشريعتنا وتراثنا وتاريخنا . فإن ظننا أننا سنحل بمذهب نستورده مشكلات مجتمعاتنا ، ونعالج به فساد أوضاعنا ، فنحن كالذى يريد أن يطفىء النار فيرميها بالخشب ، فيسكت لسانها المندلع لحظات ، ثم يمتد لهيبها فلا يبقى ولا يَذَر

إن من حمق الإنسان أن يعالج مشكلة بخلق مشكلات ، وأن يتفادى خطأً فيقع فى أخطاء ، فيكون كالذى يقضى الدَّيْنَ بالدَّيْنِ ، أو الذى يستشفى من داء بداء ، وقد قال الشاعر :

إذا ما قضيتَ الدَّيْنَ بالدَّيْنِ لم يكن قضاءً ، ولكن كان غُرماً على غُرمِ !

---

(١) النساء : ١٤٨

وقال آخر :

إذا استشفيتَ من داءٍ بداء فأقْتَلُ ما أعلّكَ ما شَفاكَ !

إن الحل الوحيد المجرَّب لهذه الأمة هو الإسلام ، ولا شيء غير الإسلام .

بهذ الحل نحفظ ديننا ، وأعراضنا ، وأموالنا ، وأخلاقنا ، وتقاليدنا .

بهذا الحل نربح دنيانا ونربح آخرتنا ، ونرضى ضمائرنا ، كما نرضى ربنا ، ونرتبط بماضينا ولا ننفصل عن حاضرنا ، كما لا نغفل مستقبلنا .

إنه الحل الحتمى ، والحل العادل ، والحل الوحيد .

لأنه الحل الذى وضعه اللّه لعباده دستوراً ومنهاجاً ، وحكم به دواءً وعلاجاً .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ؟! (١) .

* * *

(١) المائدة : ٥٠

obeikandl.com